فن السيرة الذاتية بين

أبي حامد الغزالي ومصطفى محمود

دراسة وظيفية

إعداد

د/ عبدالله محمد أديب محمد شمس الدين القاوقجي

مـــدرس الأدب والنقـد

في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

١٤٤٣هـ = ٢٠٢٢م

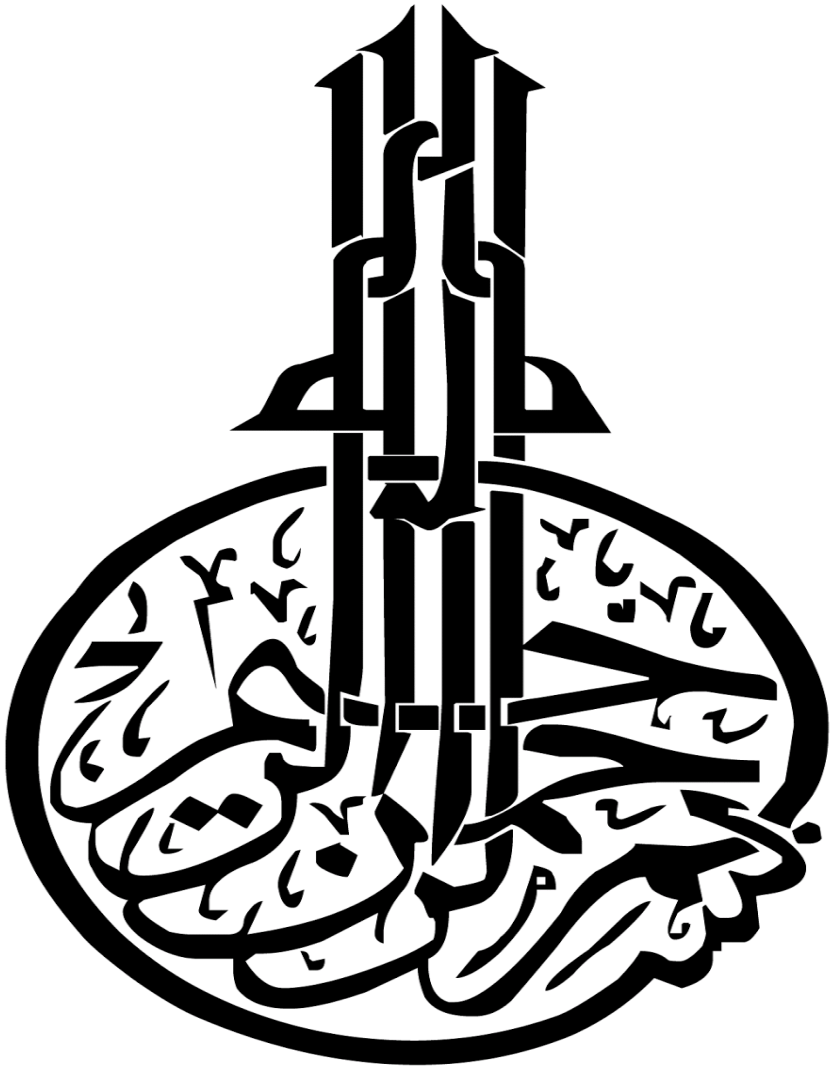

فن السيرة الذاتية بين أبي حامد الغزالي ومصطفى محمود - دراسة وظيفية.

عبدالله محمد أديب محمد شمس الدين القاوقجي.
مدرس بقسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية
البريد الالكتروني:
abdallahshamseldien.lan@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يعد الجانب الوظيفي هو الأظهر عند دراسة السيرة الذاتية؛ إذ يقدم هذا الفن خبرات متراكمة تتيح للمتلقين الانتفاع بها في طريق حياتهم، وتأتي سيرة الإمام "الغزالي" مثالا علىٰ النموذج المعرفي الإسلامي الذي يقوم علىٰ البحث والاستقصاء وصولا إلىٰ الاهتداء للصراط المستقيم، ونلمح وجوه التشابه في هذه التجربة عند الدكتور "مصطفىٰ محمود" من حيث التقلب بين شتىٰ المذاهب والمعتقدات ومجاهدة النفس، كما تتشابه السيرتان من حيث الأسلوب الفني وتقرير الوظيفة، والصيغة التعبيرية، والافتتاح الحكائي، واللغة، والدافع، والبوح، واستبطان النفس، وطريق الوصول. وقد أثمرت الدراسة عن وجود مجموعة من الوظائف تكمن في هذا الفن منها: وظيفة التطهير، ووظيفة استبطان النفس ومحاورتها، ووظيفة النقد للمذاهب الخاطئة وتوجيهها، ووظيفة حب الاستطلاع، ووظيفة التواصل الفكري، ووظيفة المراقبة الاجتماعية، ووظيفة الإمتاع والمؤانسة، ووظيفة القص، كما أفادت هذه الدراسة في بيان أن الأدب أكثر فلسفة من التاريخ، وأن السيرة الذاتية العربية هي موطن العبرة والإفادة دون اللجوء إلىٰ الإسفاف الجنسي أو الأخلاقي، وأن الشخصية الإسلامية ذات روح

إيجابية تبث الأمل والتفاؤل في شتىٰ جوانب الحياة، وأن الكاتبين قد اتخذا اللغة الأدبية زيا لسيرتهما، مع أن الموضوع الذي عنيا به موضوع جدلي فلسفي إلا أنهما ببراعة حسهما الأدبي استطاعا أن يخففا من الحمولة الفكرية للموضوع، وأن يجعلانا نواصل القراءة دون إرهاق عقلي أو ملل نفسي، بل ونتشارك معهما في الانفعال العاطفي والتجربة النفسية والمتعة الأدبية، وذلك عبر سلاسة السرد الحكائي، وحسن العرض للأحداث، والألفاظ الموجزة المكتنزة، والعبارات المتزاوجة، والأسلوب القائم علىٰ الازدواج والسجعة الرشيقة غير المتكلفة، كما جاءت سيرة الكاتبين نوعا من الرغبة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة، فقد وصلا إلىٰ مذهب خاص بهما ارتاحت له نفسهما بعد دراسة وبحث واستقصاء أمنا معه من الانحراف أو الزيغ، وقد جاءت سيرتهما وثيقة فكرية تدل علىٰ ما اكتنز عقلهما من أنواع العلوم والمعارف، وفي الوقت ذاته تثبت ما بذلا من جهد في سبيل الوصول إلىٰ ما اطمأنا له.

الكلمات المفتاحية: الغزالي – مصطفىٰ محمود –السيرة الذاتية– البوح – الوظيفة – الدافع – استبطان الذات.

The art of biography between Abi Hamid Al-Ghazali and Mustafa Mahmoud- Functional study.

Abdullah Muhammad Adeeb Muhammad Shams al-Din al-kawkgy.
Lecturer, Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University Branch, Menoufia
Email: abdallahshamseldien.lan@azhar.edu.eg

Abstract:

The functional aspect is most evident when studying the CV; This art presents accumulated experiences that allow recipients to benefit from them in their way of life. The biography of Imam "Al-Ghazali" is an example of the Islamic cognitive model that is based on research and investigation, leading to the guidance of the straight path. We see similarities in this experience with Dr. Mustafa Mahmoud in terms of The fluctuation between the various sects and beliefs and self-fighting, as the two biographies are similar in terms of artistic style, job determination, expressive formula, narrative opening, motivation, revelation, self-introspection, language, and the way to reach. The study resulted in the presence of a number of functions that lie in this art, including: the function of purification, the function of inner self-introspection and its dialogue, the function of criticism and guidance of wrong doctrines, the function of curiosity, the function of intellectual communication, the function of social control, the function of enjoyment and sociability, and the function of storytelling. The study shows that literature is more philosophy than history, and that the Arab biography is the home of the lesson and benefit without resorting to sexual or moral abuse, and that

the Islamic personality has a positive spirit that inspires hope and optimism in various aspects of life, And that the two writers have adopted the literary language as an outfit for their biography, although the subject they were concerned with is a philosophical polemic, yet by the brilliance of their literary sense they were able to lighten the intellectual load of the subject, and make us continue reading without mental fatigue or psychological boredom, and even share with them the emotional emotion and psychological experience And literary enjoyment, through the smooth narration of the story, the good presentation of events, the concise, chunky words, paired phrases, the style based on duplication and graceful unpretentiousness, The biography of the two writers also came as a kind of desire to take a personal position on life. At the same time, it proves what effort they have made in order to reach what they are assured of.

Key words : Al-Ghazali - Mustafa Mahmoud - Biography - Revelation - Job - Motivation - Self-introspection.

تقديم:

الحمد لله العليّ الوليّ، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد الصراط السويّ، ولسان كلمات الله التامات المترجم عن أسرار العشق الإلهيّ، وعلىٰ آله وأصحابه وكل وليّ وتقيّ.. وبعد،

فيعد فن السيرة الذاتية من أكثر فنون الأدب مراعاة للبعد الوظيفي إلىٰ جانب البعد الفني؛ وذاك بما يقدم من خبرات متراكبة متراكمة وأحداث متعاقبة تتضافر في تقديم خلاصة التجربة الإنسانية في أوضح مراميها وأتم سعيها، فكلما نضج الإنسان فكريا وشعوريا وعركته الحياة في دروبها المتباينة حرص علىٰ تقديم ما وصل إليه من قناعات ورؤىٰ إلىٰ الآخرين؛ أمانا لهم كي لا يقعوا في مزالق الحياة التي تعاورته، وإنقاذا لهم من مهلكات الأمور التي قد تودي بهم أو تنحرف بهم عن جادة الطريق؛ إذ تكون حياته إضاءات تتراءىٰ بها تجاربه فيستفيد بها الخلف، وقد تكون سُلْوَة لهم فتطيب بها نفوسهم وتسمو بها أرواحهم، وقد كان هذا سببا من أسباب قص القرآن الكريم لسيرة الأنبياء السابقين – عليهم السلام – لتكون تسلية وهدىٰ لرسولنا الكريم – ﷺ –.

وقد يكون صاحب السيرة نفسه هو المستفيد منها إذ ترسم له صورة حياته ماثلة أمامه، بما يحفزه في بعض الأحايين علىٰ المراجعة وتغيير الاتجاهات سواء في عقيدته ومبادئه أم في سلوكياته ومناشطه، فيكون كمن ينقح كتابه بعد قراءته وتدبره.

كما تأتي سيرة الإنسان الذاتية لتكون ذكرا له بعد موته، والذكر للإنسان عمر ثان هو أطول من عمره الذي قضاه في دنياه؛ فيُبقي هذا الذكر

صوته بين الأحياء راشدا ومعلما وهاديا علىٰ مدىٰ الدهر، يلجئون إليه في ملمات حياتهم ومناشطهم مستمدين منه ما يعينهم علىٰ مواجهة الحياة ونوازع النفس.

وقد انماز العرب من سائر الأمم بوجود النموذج البشري المكتمل لديهم، متمثلا في شخصية نبينا محمد –صلىٰ الله عليه وسلم–؛ فبوجوده توفر لديهم ما حفزهم علىٰ الكتابة والتأليف والنقل المتواتر بل الإبداع في هذا الباب، فظهرت السير النبوية متمثلة في سير: "ابن هشام، والواقدي والطبري والمسعودي والبستي.." وغيرهم كثير فلا يكاد يخلو قرن من كتّاب يعنون بكتابة هذه السيرة المطهرة، وقد تعالت هذه السيرة علىٰ غيرها من حيث الصحة والواقعية والشمول والوضوح، وعليه فلا غرو أن يتفرد لديهم فن السيرة بنوع من الخصوصية والتوثيق، وأن يتوافر له من العناية والدقة ما أخذ به في المستقبل إلىٰ مظان التقدم في إمكانات هذا الفن وجلال موضوعاته، وهذا يؤكد قدم أساس هذا الفن في أدبنا العربي مع أن المصطلح الحديث لم يكن موجودا حينذاك.

ثم سار هذا الفن في أدبنا العربي نحو التقدم والتطور وصولا إلىٰ طريقه المرسوم إبداعا وتأليفا؛ فظهر ما يسمىٰ بالتراجم والطبقات والأخبار..، ثم تطورت الكتابة في هذا الباب إلىٰ أن وصلت إلىٰ الكتابة عن الذات مثل "الحارث المحاسبي" "ت: ٢٤٣" في "النصائح الدينية والنفحات القدسية"، و"محمد بن زكريا الرازي" "ت: ٣١١هـ" في "السيرة الفلسفية"، و"أبوحامد الغزالي" "ت: ٥٠٥هـ" في "المنقذ من الضلال"، ولكن هذا كله لا يرقىٰ إلىٰ أن يوصف بالسيرة الذاتية كما يحدد

المصطلحُ الأدبي الحديث، بل يمكننا أن نعد هذه الكتابات نواة تناسبت مع بكارة هذا الفن لديهم، ورصدا لمحاولاتهم في هذا الباب، وسار هذا الفن علىٰ هذا الدرب شرقا وغربا إلىٰ أن جاء الغربيون المحدثون – ولهم يد لا تنكر في هذا الباب– فاعتنوا به أيما عناية وبنوا علىٰ ما جاء به من سبقهم، فقسموه أنواعا ووضع "فيليب لوجون" حدا للسيرة الذاتية يبين فيه معالم هذا الفن، ويوضح ماهيته، فيقول راسما حدود هذا الفن: "الحد: حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز علىٰ حياته الفردية وعلىٰ تاريخ شخصيته بصفة خاصة"(١)، وحدد أنواعه في: "المذكرات، والسيرة، والرواية الشخصية، وقصيدة السيرة الذاتية، واليوميات، والرسم الذاتي أو المقالة"(٢)، وهذا التعدد دليل علىٰ الاهتمام بهذا الفن، ومن ثَمّ هو دليل علىٰ أهميته وآثاره المفيدة، ثم جاءت "تهاني عبدالفتاح" لتقدم تعريفا يعتمد علىٰ تعريف "لوجون" السابق لكنه بشيء من التفصيل فتقول: "أستطيع أن أقترح تعريفا يعتمد علىٰ تعريف لوجون مع بعض التعديلات وهو أنها: حكي استعادي نثري يتسم بالتماسك، والتسلسل في سرد الأحداث يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز علىٰ حياته الفردية وعلىٰ تاريخ شخصيته بصفة خاصة، ويشترط فيه أن يصرح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أن ما

(١) السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٤م، ص٢٢.

(٢) نفسه ص٢٣.

يكتبه هو سيرة ذاتية"[١]، وهذا تعريف يؤكد الناحية الأدبية الجمالية التي تفرق بين فن السيرة الذاتية بوصفه جنسا أدبيا، وبين الحكي التاريخي الذي لا يدخل ضمن درس الأدب.

أهمية الموضوع:

يحتاج المجتمع إلىٰ هذا اللون من الأدب وبخاصة أن التجربة الإنسانية تتكرر وتتماثل، ويحتاج الأبناء إلىٰ خبرات الأجداد؛ ليستطيعوا مواجهة الحياة التي تتزايد تعقيدا واضطرابا، لذا "يذهب "أسفيروس" مؤسس نظرية "ميونيخ" في الاتصال إلىٰ أن الاتصال يجعل المجتمع في حالة تفاعل مستمر، بمعنىٰ التجدد والانبعاث والحركة"[٢]، وبهذا لا تنفصل دورة الحياة ولا تنقطع الصلة بين الحاضر والماضي، بل يوظف الحاضر ما ورثه من الماضي توظيفا يضمن له الخروج الآمن من مزالق الحياة، إلىٰ جانب المتعة الفنية التي يصطبغ بها هذا الفن.

وقد وقع اختياري علىٰ سيرة الإمام "الغزالي" التي ضمنها كتابه: "المنقذ من الضلال"، وسيرة الدكتور "مصطفىٰ محمود" التي ضمنها كتابيه: "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان" و"حوار مع صديقي الملحد" ليكونا محلا للدراسة؛ لما لهذين العالمين من قدم صدق في بناء النموذج

(١) السيرة الذاتية في الأدب العربي فدوىٰ طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، تهاني عبدالفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٢م، ص١٦.

(٢) أدب السير الذاتية، عبدالعزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان- مكتبة لبنان ١٩٩١م، ص٩٨.

المعرفي الإسلامي قديما وحديثا، وللتشابه الحاصل بين مراحل حياتهما العامة التي مرا بها علىٰ اختلاف بعض تفصيلاتها، ولما لحظته في الآونة الحديثة من انتشار ظاهرة التشكيك في الدين والإلحاد، والتيه بين المذاهب المتنوعة التي لم تعد تتسع لاحتواء الآخر أو رد فكره عن طريق الدراسات المتجردة، مما يحفز علىٰ دراسة سيرتهما الذاتية عسىٰ أن يكون بها رد علىٰ ما يساور هذه النفوس القلقة من شكوك وأوهام، كما تكون نبراسا لمن يتصدىٰ لتفنيد آراء الآخرين عن طريق البحث والاستقصاء والمناقشة العلمية الجادة.

وعلى هذا يمكننا القول: إن من علائم أهمية تجربة الإمام "الغزالي" تكرارها علىٰ المدىٰ الزمني والمكاني للحياة الإنسانية كما هو الحال في كل تجربة عظيمة، مما يقدمها علىٰ أنها تجربة إنسانية تعتور العقول المفكرة الباحثة عن خيط العقيدة الأبيض الذي ينماز من غيره من الخيوط السوداء التي غمّت علىٰ بعض الناس حياتهم وأرهقتهم في تشعباتها.

ويمثل هذا التكرار في العصر الحديث تجربة الدكتور "مصطفىٰ محمود" الذي اقتبس من مشكاة "الغزالي" ما ربط بين التجربتين ربطا متينا؛ إن في بواعثه أم في نتائجه، وإعادة نشر سيرتهما الذاتية مع التركيز علىٰ الوظيفة التي هدفا إليها؛ له من النفع ما له في تثبيت قلوب المتلقين علىٰ الإيمان الحق، وفي الوقت ذاته هو تثرية للدراسة في جنس السيرة الذاتية التي هي جنس أدبي يحتاج إلىٰ المزيد من التأصيل والاهتمام.

ومن الدراسات السابقة التي اعتمدت عليها:

١- الإيحاءات السردية والمعرفية في السيرة الذاتية كتاب المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي أنموذجا، محمد سالمي (طالب دكتوراه)، قسم الأدب واللغة العربية جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر ٢٠١٩م: وقد تحدث في هذه الدراسة عن غرض الإمام من كتابه، ثم تحدث عن السيرة الذاتية والنسق المعرفي في كتاب "المنقذ من الضلال"، ثم سرد المراحل التي مر بها الإمام بدءا من مرحلة الشك ثم مرحلة البحث والنظر وصولا إلىٰ مرحلة اليقين إذ تبادل الإمام الأدوار بين وظيفة السارد ووظيفة الواصف، ثم تحدث عن تقنية التحبيك عبر زمنية المحكي وهوية البطل السردي.

وهو بحث جيد لكن الباحث انتهج فيه نهج الاقتضاب والإيجاز الشديدين؛ لكونه من متطلبات رسالة الدكتوراه، ولأن الباحث لم يعن بهذا الموضوع عناية تبين أهميته، لذا تحدث عن كل ذلك في إحدىٰ عشرة صفحة سبقتها صفحة تقديم تحدث فيها عن شخصية الإمام، وأعقبها بخاتمة في صفحة واحدة ضمنها أربع نتائج تخص الجانب السردي الذي قام عليه الحكي، ويتبين من هذا أن الطالب لم يتطرق إلىٰ تفصيل البنية الزمنية أو المكانية التي كانت فضاء للمراحل التي مر بها الإمام، ولا إلىٰ البوح أو الصراع الذي عاناه الإمام في تجربته، وكذلك لم يتطرق الباحث إلىٰ القالب الفني للسيرة الذاتية عند الإمام ولا إلىٰ تفصيل الجانب الوظيفي لهذه السيرة، ولا عن إسهام الإمام في بناء النموذج المعرفي الحضاري الإسلامي العربي.

٢- أدب السيرة الذاتية، د.عبدالعزيز شرف، وقد تحدث عن الإمام الغزالي في إحدىٰ عشرة صفحة ضمن كتابه هذا، سرد فيها حياة الإمام والمراحل التي مر بها مقتبسا من كتاب الإمام "المنقذ من الضلال" دورا من أدوار الشك التي عانىٰ منها، ليصور رحلة عقل من أعظم العقول.

٣- **فن السيرة، د. إحسان عباس، وفيه يصنف سيرة الإمام "الغزالي"** ضمن السير التي تصور الصراع الروحي، ثم علق علىٰ تفسير الإمام لحالة الشك التي انتابته، ولأن الدكتور لم ير الوجه الكامل لفن السيرة الذاتية داخل الكتاب - إذ لم يصور إلا جانبا من الأزمة الروحية - فقد نزع عنه بعض هذه الخصوصية الفنية ووسمه بأنه ليس كتاب سيرة بالمعنىٰ الدقيق(١)، وأنا لا أوافق الأستاذ الدكتور فيما ذهب إليه؛ فما أوضحته من معالم البناء الفني لهذا الجنس التي مثلت في هذا الكتاب تشهد بأنه داخل في هذا الفن بوجه من الوجوه.

٤- **مصطفى محمود شاهد على عصره للكاتب جلال العشري**، وفيه يتحدث الكاتب عن معالجة مصطفىٰ محمود لقضية العلم والإيمان، وعن أعماله الأدبية من: قصة قصيرة، ورواية، ودراما، وأدب رحلات، وما سماه بأدب الآخرة.

٥- **نظرية المعرفة عند الغزالي ومقارنتها بالفلسفات التربوية، د أحمد ضياء الدين حسين، ود رائده خالد حمد نصيرات**، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدارسات، العدد السادس والثلاثون، تشرين

(١) ينظر فن السيرة، إحسان عباس، دار الشروق عمان، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٦م، ص١٢١.

الأول ٢٠١٦م، وقد تعرض الباحثان فيها للكشف عن حياة الإمام، وهي دراسة اقتصرت علىٰ مقارنة آراء الإمام "الغزالي" المتعلقة بمصادر المعرفة وعلومها بالفلسفات التربوية الحديثة الرئيسة: المثالية والواقعية والبراجماتية والمذهب الحدسي ودراستها دراسة عامة ليست تفصيلية لإظهار ملامح تكامل نظرية المعرفة عند الإمام(١).

أهمية هذه الدراسة:

ومما سبق نجد أن هذه الدراسات قد خلت من دراسة تُعنىٰ بدراسة وجوه التأثر الفنية والفكرية بين الإمام "الغزالي" والدكتور "مصطفىٰ محمود"، مستخلصة الوظائف المتعددة لفن السيرة الذاتية، ومبينة أثر هذه الوظائف في المتلقين، وهذا ما ستقوم به هذه الدراسة إن شاء الله تعالىٰ.

منهج الدراسة:

اقتضت طبيعة المادة العلمية للدراسة أن أستخدم المنهج الفني إذ هو المنهج الأليق لبيان وجوه التأثر الفنية والفكرية بين الكاتبين؛ فهذا الفن له خصائص مجتمعة تتضح في كل عمل يحمل هذا الطابع الحكائي السيريّ، علىٰ اختلاف وضوحها وخفوتها عند كل كاتب، لكن هذا لا يمنع من تفرد كل كاتب بخصائصه المائزة.

كما يساعد المنهج الفني علىٰ استخلاص الوظائف من كتابة السيرة الذاتية؛ إذ تكون الكيانَ الأظهر والثمرة التي يخرج بها المتلقي عند قراءة السيرة، وقد كانت الوظيفة عند الإمام "الغزالي" و"مصطفىٰ محمود" هي الهدف المنشود الذي لم يبعدانا عنه، ولم يتطرقا في حكيهما إلىٰ شيء من

(١) ينظر نظرية المعرفة عند الغزالي ومقارنتها بالفلسفات التربوية، د أحمد ضياء الدين حسين، ود رائده خالد حمد نصيرات، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدارسات، العدد السادس والثلاثون، تشرين الأول ٢٠١٦م، ص٣٦٦.

مناحي الحياة علىٰ تشعبها وتعقدها؛ فلم يبينا لنا كيف كانا يعيشان ولا كيف كانت علاقتهما بمن يداخلهما الحياة، ولم يدخلانا في خضم حياتهما الزاخرة كما هو المألوف في مثل هذا الفن.

مسار الدراسة:

جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث يسبقها مقدمة وتمهيد ويعقبها خاتمة وثبت بأهم المصادر والمراجع، وقد اشتملت المقدمة علىٰ أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وبيان الدراسات السابقة وما ستتفرد به هذه الدراسة، والمنهج الذي سارت عليه، ومسار الدراسة، ثم تحدثت في التمهيد عن فن السيرة الذاتية عند الكاتبين وكيف كانت الوظيفة هي الجانب الأظهر في سيرتهما، ثم تناولت في المبحث الأول: وجوه التأثر الفنية بين الكاتبين؛ من حيث العنوان، والاستهلال الحكائي، والصيغة التعبيرية، واللغة، والشخصيات، والبيئة الزمانية والمكانية وأثرهما في مسار الأحداث، والخيال، وتناولت في المبحث الثاني: وجوه التأثر الفكرية بين الكاتبين من حيث: الدافع، والبوح واستبطان الذات، وطريق الوصول، ثم تناولت في المبحث الثالث: الوظائف الفنية والفكرية لفن السيرة الذاتية عند الكاتبين من حيث وظيفة التطهير، ووظيفة استبطان النفس ومحاورتها، ووظيفة مغالبة النفس، ووظيفة النقد للمذاهب الخاطئة وتوجيهها، ووظيفة حب الاستطلاع، ووظيفة التواصل الفكري، ووظيفة المراقبة الاجتماعية، ووظيفة الإمتاع والمؤانسة، ووظيفة القص، ووظيفة التأثر، ثم جاءت الخاتمة التي ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها، ثم ختمت الدراسة بثبت به أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

التمهيد:

فن السيرة الذاتية عند الكاتبين

يسمي الأوربيون كتاب "المنقذ من الضلال" بـ "اعترافات الغزالي"[(١)]، وهذه التسمية تؤكد أصالة هذا الكتاب في فن السيرة الذاتية، وهي تسمية تتماشىٰ مع النقد الفني لهذا الكتاب؛ إذ هو كتاب يحكي تجربة الإمام منذ أن تقلب بين وجوه الشك إلىٰ أن وصل إلىٰ المذهب الذي ارتضاه، كما أنه تحقق فيه ما يتحقق في السيرة الذاتية التي تعتمد علىٰ: "وحدة البناء وتطور الشخصية وقوة الصراع، وعلىٰ الحقيقة التاريخية والسرد وهما أقرب صلة بالإنسان"[(٢)]، بالإضافة إلىٰ إثبات عنصري الزمان والمكان اللذين يقتضيهما سرد الأحداث التي وقعت فيهما، ووجود صفة مائزة لهذا الفن وخصيصة لصيقة به وهي: "البوح" الذي جاء علىٰ لسان الإمام في أكثر من موضع من كتابه، كما أن اعترافاته هاته تدل علىٰ حرصه علىٰ تبصير المتلقي وهدايته إلىٰ الطريق السويّ الذي وصل إليه عن طريق سرد هذه المرحلة من مراحل حياته، وهذا هو الهدف الأساس من فن السيرة الذاتية، والوظيفة المرجوة منه، ولهذا صنف الدكتور "يحيىٰ إبراهيم عبدالدايم" سيرة الإمام "الغزالي" تحت قسم السيرة الذاتية التي اتخذ أصحابها موقفا ذاتيا من الحياة[(٣)]، مما يجعلنا نحكم علىٰ هذا الكتاب بأنه كتاب سيرة ذاتية بالمعنىٰ الفني لهذا المصطلح.

---

(١) أدب السير الذاتية، ص١٠٢.

(٢) ينظر الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيي إبراهيم عبدالدايم، دار إحياء التراث بيروت ١٩٧٥م، بتصرف ص٢٥.

(٣) ينظر الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص٣٤.

وتتلاقىٰ سيرة الدكتور "مصطفىٰ محمود" في كتابيه "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان، وحوار مع صديقي الملحد" مع سيرة الإمام "الغزالي"، وبخاصة فيما انتهجه من بنية فنية؛ فنرىٰ فيها تطور الشخصية وتحولها من حالة الشك والارتياب إلىٰ حالة الإيمان والتسليم، وكذلك اتضح فيها الصراع النفسي الذي عانىٰ منه الكاتب وكيف أثر في مسارات حياته، واتخاذ العلم وسيلة بجانب اللجوء إلىٰ تحكيم الفطرة الإنسانية وصولا إلىٰ نقطة الاهتداء، مما يوحي بتقارب النهج الفكري لديهما وتماس رؤيتهما، ويؤكد حرص الكاتبين علىٰ بيان المغزىٰ العقدي والتوجيه الفكري.

الوظيفة عند الكاتبين:

تواترت العبارات التي تشير إلىٰ تركيز الكاتبين علىٰ بيان الهدف من تدوين سيرتهما؛ فالإمام الغزالي يقول مبينا قصده من حكايته: "والمقصود من الحكايات أن يعمل كمال الجد في الطلب حتىٰ ينتهي إلىٰ طلب ما لا يطلب؛ فإن الأوليات ليست مطلوبة فإنها حاضرة، والحاضر إذا طلب فقد واختفىٰ، ومن طلب ما لا يطلب لا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب"[1] ، وفي موضع آخر يقول: "والغرض الآن من حكاية حالي، لا الإنكار علىٰ من استشفىٰ به؛ فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء"[2] ، ويخاطب القارئ بقوله: "انكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها

(١) المنقذ من الضلال والموصل إلىٰ ذي العزة والجلال، أبو حامد الغزالي، تحقيق د. محمد أبوليلة، ود. نورشيف عبدالرحيم رفعت، نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة. واشنطن، ص ١٧١.

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٧٨.

واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: أني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالىٰ خاصة...."[١] ، وقوله معقبا علىٰ تدريسه العلم الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه: "هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي.."[٢]، وقد يكون كلامه بصيغة الأمر حرصا علىٰ إلزام القارئ ما ينفعه: "فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي – ﷺ- فجرّب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعيان"[٣]، وقد تأتي وظيفة السيرة في المنهج التعليمي الذي يرسمه الإمام للقارئ وذلك كتعداد الأسباب مثل قوله: "فنظرت إلىٰ أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم فإذا هي أربعة:

١- سبب من الخائضين في علم الفلسفة.

٢- وسبب من الخائضين في طريق التصوف.

٣- وسبب من المنتسبين إلىٰ دعوىٰ التعليم.

٤- وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس"[٤].

وتبيان أمور مداواتها: "وأما السبب الرابع وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء فيداوىٰ هذا المرض بثلاثة أمور"[٥]، وكذلك تظهر الوظيفة التعليمية في التتبع الاستقصائي والنقاش اللذين قام بهما الإمام في دراسة المذاهب ورد الاعتراضات ثم تلخيص النتيجة في نهاية الأمر كمثل

(١) المنقذ من الضلال، ص٢٥٧.

(٢) نفسه، ص ٢٩٤.

(٣) نفسه، ص ٣٠٥.

(٤) نفسه، ص ٢٨٢.

(٥) نفسه، ص ٣٠٥.

قوله: "والمقصود أني قررت شبهتهم إلىٰ أقصىٰ الإمكان ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان، والحاصل: أنه لا حاصل عندهم ولا طائل لكلامهم"[1]، ومن هنا تتبين طريقة الإمام في تأصيل العلوم ودراستها ومناقشتها ليميز الخبيث من الطيب وصولا إلىٰ رؤيته الخاصة به في العلوم اليقينية سابقا بهذا النظريات الحديثة، وهذا ما توصلت إليه الدراسات المقارنة الحديثة إذ جاء في واحدة منها: "وقد تكونت نظرية المعرفة عنده من خلال آرائه في إمكان المعرفة ومصادرها وتكامل علومها ودعوة العلماء بأقسامها إلىٰ التكامل، وهذا مالم تستطع الفلسفات التربوية الحديثة التوصل إليه وصياغته الصياغة التي صاغها الإمام الغزالي"[2]، وشأنه في ذلك شأن العلماء المحققين الذين بنوا النموذج المعرفي الإسلامي العربي علىٰ أساس من الدرس والتجريب والمقارنات ونقاش الآخر والبناء علىٰ ما تأكدت صحته.

وقد تأتي الوظيفة تقريرا لما قد سرده الإمام آنفا وذلك حين يقول: "هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهم لا بطريقهم"[3]، بل بلغ من حرصه علىٰ إفادة القارئ أنه لم يكن يسهب في السرد – مع أن هذا مطلب يقتضيه هذا الفن- حرصا منه علىٰ عدم تشويش القارئ وصرف ذهنه عما يريده هو أن يكون الذهن منصرفا إليه، ولذا نجده يحرص علىٰ تلخيص المطلوب وإبانة المقصود في أوجز عبارة ويستهل ذلك بقوله: "والمقصود من هذه الحكايات..."[4]، وقوله:

(١)المنقذ من الضلال ، ص٢٢٠.

(٢) نظرية المعرفة عند الغزالي ومقارنتها بالفلسفات التربوية، ص٣٦٤.

(٣) المنقذ من الضلال، ص ٣٠٧.

(٤) نفسه، ص ١٧١.

والغرض الآن حكاية حالي..[١]، وقوله: فاسمع الآن حكايتهم وحكاية حاصل علومهم.."[٢]، وقوله: "علىٰ الجملة..."[٣]، وقوله: "وبالجملة..."[٤]، في إشارات واضحات إلىٰ حرصه علىٰ توصيل غرضه إلىٰ المتلقين.

وبهذا يمثل كتاب الإمام الغزالي "المنقذ من الضلال" الامتزاج المكين بين فن السيرة الذاتية والبنىٰ المعرفية لدىٰ الإمام، فقد أراد أن يقدم تجربته الذاتية التي انماعت بين القلق النفسي والتشتت المعرفي، "لذلك لا يمكن للقارئ الاطلاع علىٰ فكره وآرائه دون المرور علىٰ كتابه الشهير "المنقذ من الضلال" والذي حقق من خلاله امتزاج السيرة الذاتية بالأزمة النفسية من جهة، وبالتجارب المعرفية من جهة أخرىٰ"[٥]، ولهذا فإن هذا الكتاب ليس مجرد كتاب سيرة ذاتية فحسب، بل هو شاهد علىٰ كيفية البناء المعرفي والروحي للعالم المسلم الذي أسهم في بناء الحضارة الإسلامية العربية.

(١)المنقذ من الضلال ص١٧٨.

(٢) نفسه ١٨١.

(٣) نفسه وقد ذكرها الإمام في صفحتي: ٢٦١، ٢٨٢.

(٤) نفسه وقد ذكرها الإمام في صفحات: ٢٥٨، ٢٦٣، ٣٠٤.

(٥) الإيحاءات السردية والمعرفية في السيرة الذاتية كتاب المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي أنموذجا، محمد سالمي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها جامعة محمد خيضر–بسكرة الجزائر، المجلد الثاني عشر العدد الأول مارس ٢٠١٠م، ص٢.

وأما "مصطفىٰ محمود" فجاء حكيه ردودا عن الأسئلة التي صدّر بها مباحثه صراحة أو ضمنا؛ فالعقلية العلمية عنده جعلت تأليفه بناء منطقي التصميم ذا لغة أدبية، مثل قوله: "تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لابد لكل مخلوق من خالق ولابد لكل صنعة من صانع ولابد لكل موجود من موجد.. صدقنا وآمنا.. فلتقولوا لي إذن من خلق الله؟"[١]، وقوله: "كيف أحفظ هذا الكم الهائل من الأعداد؟"[٢]، وقوله: "المثقفون لهم اعتراض تقليدي علىٰ مسألة البعث والعقاب، فهم يقولون: كيف يعذبنا الله والله محبة؟[٣]، ولم يختلف نهجه في كتابه الثاني "حوار مع صديقي الملحد" عنه في كتابه الأول "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان"، فتتشابه الأسئلة في الفصول المتشابهة، ويزيد عليها أسئلة أخرىٰ في الفصول التي زادها في كتابه الثاني مثل قوله: "إذا كان الله محبة وجمالا وخيرا فكيف خلق الكراهية والقبح والشر؟"[٤]، وقوله عن الإنسان الذي لم يصله القرآن: "ماذا يكون حظه بين يدي إلهكم يوم القيامة؟"[٥]، وهذا النهج يعمل صراحة علىٰ تحجيم الكاتب ويضمن عدم الاستطراد الذي قد يأخذ المتلقي بعيدا عن

(١) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان، مصطفىٰ محمود، دار المعارف١٩٧٦م، ص ٧.

(٢) نفسه، ص٣٣.

(٣) نفسه، ص٥٩.

(٤) حوار مع صديقي الملحد، مصطفىٰ محمود، هدية مجلة الأزهر شهر جمادىٰ ١٤٣٦ه مارس ٢٠١٥م، ص٤٧.

(٥) حوار مع صديقي الملحد، ص٥٢.

هدف السيرة، وفي الوقت ذاته يجعل الوظيفة من السيرة هي الأظهر في الحكي.

ويتفق هذا كله مع ما ذهب إليه د "إبراهيم عبد الدايم" من أنه: "يحسن بكاتب السيرة الذاتية أن يكشف عن غايته للقارئ"(١)، لأن السيرة الذاتية تكون ناجعة إذا تلاقت فيها الغاية من التدوين – وكانت مفيدة- مع الأسلوب المشوق في الحكي، وكذلك لأن الغاية هي المقصود الأول للمتلقي عند اختياره لفن السيرة الذاتية.

❁❁❁❁❁

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ص ٥.

المبحث الأول: وجوه التأثر الفنية بين الكاتبين

تعد السيرة الذاتية حديثًا جنسا سرديا يقوم فيه الكاتب بتدوين ما عاينه وعاناه في حياته، لكنه يختلف عن الرواية وذلك لأن قالب السيرة الذاتية محدد بضابط الواقعية؛ فالكاتب هنا يحكي حدثا وقع في حياته وقوعا حقيقيا وليس متخيلا، وعلىٰ هذا تكون مهمة كاتب السيرة أعسر من مهمته حين يكتب رواية متخيلة؛ فكاتب السيرة يقوم علىٰ التذكر والحبك، وكاتب الرواية يقوم علىٰ التصور والحبك، وحبك الأحداث المحددة بواقع معين أصعب من حبك الأحداث المتصورة، فهو في حال الأحداث المتخيلة له الحرية التامة في تصور الأحداث التي تعينه في حبكته ومسار روايته، أما في حال الأحداث المحددة بمكان وزمان محددين فيتعين عليه تتبع الذاكرة وشحذها لتأتلف تلك الأحداث سطورا في سيرته، دون التصرف الذي يخرج العمل عن نطاق واقعية السيرة الذاتية، كما يتبع ذلك أن تكون شخصياته من الواقع المعيش الذي ارتبطت به حياته وليست أسطورية أو خيالية.

علىٰ أن هذا الضابط لا يمنع صياغتها صياغة روائية تجذب المتلقي وتشد انتباهه، علىٰ مثل ما نرىٰ عند: "طه حسين في الأيام، وتوفيق الحكيم في يوميات نائب في الأرياف وزهرة العمر وسجن العمر.." وغيرهما كثير من كتاب العصر الحديث الذي استفادوا من الرؤية الفنية للقصة والرواية.

أما عن العصر العربي القديم فقد كانت السيرة الذاتية في الغالب أشبه بالفصول المنفردة أو حكايات الأخبار، لا يجمعها حدث واحد كما هو الحال في مجال الرواية حديثا؛ وهذا لأن الماضين كانوا يعنون بوظيفة

السيرة الذاتية قبل أن يعنوا بالجانب الحكائي فيها، فلا يذكرون في أخبارهم إلا ما كان له نفع للمتلقي أو ما له تأثير في رسم حياة صاحب السيرة، أو لأنهم كانوا يركزون علىٰ الكليات والعموميات التي ترسم حياة الإنسان، دون التطرق لتفاصيل الحياة التي نالت الاهتمام حديثا، وعلىٰ هذا الأساس يجدر بنا أن نقرأ سيرة الإمام "الغزالي"، وقد لاحظت تأثر "مصطفىٰ محمود" بهذا المنهج في سيرته؛ فقد كان معنيا بمناقشة قضايا محددة، وليس بسرد سيرته فقط، مما حدا بالربط بينه وبين الإمام عند الدراسة.

وقد جاءت سيرة الكاتبين علىٰ نسق متفاوت من حيث العناصر الفنية لجنس السيرة الذاتية، نتج من حرصهما علىٰ بيان الوظيفة والتركيز عليها، مما أثر علىٰ البناء الفني بشكل عام علىٰ سيرتهما؛ فقد ظهر هذا البناء ظهورا واضحا في بعض الفصول، وخفت في بعض الفصول الأخرىٰ خفوتا يُظن معه أنها مقالات جدلية، لولا وجود بقية من ملامح البناء الفني تصرح بدخول هذه الفصول تحت جنس السيرة الذاتية، ويرىٰ د "إبراهيم عبدالدايم" شيوع هذا الأسلوب في السير الذاتية في العصر الحديث فيقول: "التصوير يشد الكاتب نحو الرواية تارة، وتارة أخرىٰ يشده الميل إلىٰ التعبير عن حالته الفكرية أو حركاته الفكرية أو حركاته النفسية والشعورية الخاصة إلىٰ أسلوب المقالة، فتراه يختار لبناء ترجمته الذاتية هذين الشكلين المتداخلين اللذين يشيران إلىٰ أسلوب مختلط علىٰ ما يلوح لنا، يتراوح بين أسلوب المقالة وأسلوب الرواية"[(١)]، وهذه الملامح الفنية التي ظهرت في سيرتهما تتمثل فيما يأتي:

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ص ١١٤.

- العنوان:

يعد العنوان اللبنة الأولىٰ مكانًا الأخيرة وضعًا في العمل الأدبي غالبًا، فهو أول ما تقع العين عليه، وهو همسة البداية لعين القارئ، وفي الوقت ذاته هو المختتم الذي يأتي في ذهن القارئ بعد نهاية القراءة حين يقارن بين أحداث ما قرأ والعنوان الذي افتتح به قراءته؛ لذا فهو يمثل وعداً من المؤلف لقارئه؛ "ويمثل القفزة الاستباقية للنص"[1]؛ إذ هو يوحي بالأحداث قبل الشروع في قراءتها، ويبعث علىٰ التخيل، ويحيل إلىٰ مدلولات العمل الأدبي من حيث فكرته وموضوعه وأثره، وقد فقه قدماؤنا وظيفة العنوان ومدلولاته حين عرفوا العنوان بكلمات: القصد، والأثر، والسمة، والتعريض[2]، تلك الكلمات التي تدل علىٰ وظائف العنوان، مما حدا د. "محمد الجزار" أن يصف هذه الكلمات بأنها أقرب إلىٰ المعنىٰ الاصطلاحي منها إلىٰ المعنىٰ اللغوي فيقول: "إن ما يهمنا ليس أصل الكلمة مدار البحث، وإنما ما أورده المعجم لها من دلالة، أزعم أنها تكاد تكون اصطلاحية أكثر منها لغوية، فقول ابن سيده إن العنوان "سمة الكتاب" يقطع بين الكلمة والثقافة الشفاهية التي كانت أساس حركة الجمع اللغوي بشروطها الثلاثة الزمانية والمكانية والثقافية"[3].

(١) نظرية السرد من وجهة النظر إلىٰ التبئير، جيرار جينيت وآخرون، ترجمة ناجي مصطفىٰ، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي الطبعة الأولىٰ ١٩٨٩م، ص١٢٤.

(٢) ينظر مادة "عنن" ومادة "عني" القاموس المحيط، ولسان العرب، والمعجم الوسيط، وتاج العروس.

(٣) العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، د. محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتب ١٩٩٨م، ص١٨.

وعنون الإمام "الغزالي" كتابه بعنوان: "المنقذ من الضلال والموصل إلىٰ ذي العزة والجلال"، وهذا العنوان ينص صراحة علىٰ موضوع الكتاب؛ فالجزء الأول يشير إلىٰ حالة الارتباك والتشظي التي تعاورت الإمام في بداية رحلته، والجزء الثاني يشير إلىٰ مرحلة الاهتداء التي توصل إليها ومعرفة طريق الحق الذي أوصله إلىٰ الله تعالىٰ.

وبنىٰ "مصطفىٰ محمود" عنوان كتابه الأول علىٰ التقابل: "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان"، والأصل في التقابل أن ينقلب من الشيء لنقيضه؛ أي من الشك إلىٰ اليقين، لكنه هنا اختار الإيمان بدلا من اليقين في عدول موجه إلىٰ موضوع الكتاب الذي هو الوصول إلىٰ طريق الحق والإيمان، ولو بقي علىٰ الأصل لم يدر المتلقي موضوع الكتاب لأن التيقن يوجه إلىٰ شتىٰ مناحي الحياة؛ مثل تيقن الموت وتيقن الحساب...، فجاء العنوان هنا منطلقًا كاشفًا عن البعد الكامن وراء اختيار العمل، ومن ثم فهو يرسل إيحاءاته الموضوعية والفنية إلىٰ المتلقين، "وهذا الترابط بين العنوان والنص هو ما يجعلنا نرىٰ أن النص إذا كان بأفكاره وإيحاءاته مسنداً، فإن العنوان مسندٌ إليه"[(١)]، وأما كتابه الثاني فجاء بعنوان: "حوار مع صديقي الملحد" وكلمة الملحد هنا دلت علىٰ فكرة الكتاب أيضا؛ فأول ما يرد علىٰ ذهن المتلقين عند قراءة هذا العنوان هو حوار الملحد حول عقيدته وأفكاره، ومن ثم يكون العنوان دالا علىٰ فكرة الكتاب، ويكون قد مثل بؤرة العمل أو النواة المركزية التي يدور في فلكها كل مضامين العمل الأدبي.

ومما سبق يتضح اتفاق الكاتبين في ارتباط العنوان عند كل منهما بفكرة الكتاب، وأن العنوان عندهما أحد دعائم العمل الأدبي الذي يتكون من:

(١) ينظر مقال (السيميوطيقا والعنونة) د. جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر المجلد الخامس والعشرون العدد الثالث يناير/ مارس١٩٩٧م، ص٩٧.

عنوان الإبداع، واسم المبدع، والمتن الروائي، وعلىٰ هذا لا يكون العنوان فرعًا ولا فضلة ولا نافلة بل أساس من أسس النص الأدبي.

- **افتتاح السيرة بمستهل حكائي:**

يحكي الإمام الغزالي في افتتاح سيرته " المنقذ من الضلال" بأن "عبدالغافر الفارسي" سأله أن يبثه غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأن يقص عليه ما قاساه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق.."[1]، وهذه الافتتاحية تعد بيانا موجزا توضح المقصود من تدوين هذه السيرة، وتأخذ المتلقي إلىٰ مركزية الغرض منها؛ إذ يقول بعدها: "اعلموا –أحسن الله تعالىٰ إرشادكم، وألان للحق قيادكم– أن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب مع كثرة الفرق وتباين الطرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي"[2] ، فانتقاله إلىٰ ضمير الجمع "اعلموا" مع أن السائل مفرد لَيشير بوضوح إلىٰ أن غرض الإمام ليس الإجابة علىٰ السائل المفرد فقط، بل يريد أن يبين لكافة المتلقين عبر الأزمنة المتعاقبة ما قد وصل إليه علمه ونفذت إليه بصيرته واطمأن إليه قلبه، كما أن هذا التدوين في سفر عظيم كهذا دليل علىٰ ذلك أيضا؛ فقد كانت الإجابة علىٰ السائل شفاهة تكفي ولكن الإمام أبىٰ إلا وصول المرام إلىٰ الأمة جمعاء؛ فدوّن إجابته في كتاب يكون سندا لمن يأتي بعد.

(١) ينظر المنقذ من الضلال ص١٥٦.

(٢) نفسه ص١٥٨.

وقد سار د. "مصطفىٰ محمود" علىٰ الطريقة ذاتها في كتابيه: "رحلتي من الشك إلىٰ اليقين، وحوار مع صديقي الملحد"؛ إذ بدأ حكيه بتوجيه سؤال إلىٰ نفسه يقول فيه: "تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لابد لكل مخلوق من خالق، ولابد لكل صنعة من صانع ولابد لكل موجود من موجد.. صدقنا وآمنا.. فلتقولوا لي إذن من خلق الله أم أنه جاء بذاته؟ فإذا كان قد جاء بذاته وصح في تصوركم أن يتم هذا الأمر،.. فلماذا لا يصح في تصوركم أيضا أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهي الإشكال؟"[(١)]، وكرر الطريقة ذاتها في كتابه: "حوار مع صديقي الملحد" لكنه أجرىٰ الأسئلة علىٰ لسان صديق يحاوره ويقول: "أنتم تقولون إن الله موجود وعمدة براهينكم هو قانون السببية الذي ينص علىٰ أن لكل صنعة صانعا ولكل خلق خالقا ولكل موجود واجدا.. النسيج يدل علىٰ النساج.. والكون بهذا المنطق أبلغ دليل علىٰ الإله القدير الذي خلقه. صدقنا وآمنا بهذا الخالق.. ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل ومن خلق الخالق؟"[(٢)] ، وهذا السؤال الافتتاحي عند الكاتبين اقتضىٰ منهما أن ينتهجا طريقة الحوار في سيرتهما؛ فالسؤال يستلزم إجابة وبهذا تتم عناصر الحوارية من مرسل ومستقبل ورسالة.

- **الافتتاحية الحكائية للفصول:** دأب "مصطفىٰ محمود" في فصول كتابه "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان" علىٰ افتتاح الفصل بمستهل

(١) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان، ص٧.

(٢) حوار مع صديقي الملحد، مصطفىٰ محمود، ص٢٧.

حكائي مثل قوله: "كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره.."[1]، أو قوله: "خطر لي ذات مساء أن أقوم ببحث في سراديب ذاكرتي.."[2] ، أو قوله: "لا أنسىٰ تلك الليلة منذ سنوات وأنا في رحلتي في أدغال أفريقيا الاستوائية.."[3]، أو قوله: "تروي لنا الأديان حكاية رجل يظهر في آخر الزمان..."[4]، وأما الفصول التي لم يظهر فيها هذا المستهل الحكائي صراحة في مفتتح الفصل فإنه فقط تأخر إلىٰ ما بعد المقدمة التي مهّد بها الكاتب للقضية التي يناقشها في هذا الفصل، وذاك كافتتاحه الفصل الثاني بقوله: "كلنا من أصل واحد.. من خامة واحدة. ولكن لكل منا فرديته الخاصة. والفرق بين مخلوق ومخلوق..."[5] ، ثم يأتي المستهل الحكائي بعده بصفحتين: "بهذا الفهم المادي المسطح تصورت الإنسان في البداية، وكنت أقول لنفسي إن الشخصية ليست شيئا واحدا..، ونسيت بهذا التلاعب اللفظي الحقيقة الأولية البسيطة..، وكنت أتصور أني يمكن أن أفهم الروح إذا شرحت الجسد إذ لا فرق بين الاثنين"[6] ، وهكذا فعل في الفصلين الرابع والخامس.

(١) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص٧.

(٢) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان، ص٣٣.

(٣)رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص٨٣.

(٤)السابق ص٩٥.

(٥) نفسه ص٢١.

(٦) نفسه ص٢٣ بتصرف.

وأما كتابه "حوار مع صديقي الملحد" فجاءت افتتاحية الفصول فيه بين: "قال صاحبي، وقال صديقي.."، وهذه الافتتاحيات في الكتابين هي افتتاحات حوارية، والحوار أصل من أصول الحكي؛ لذا فهي قربت العمل من جنس السيرة الذاتية لكنها لم تصل به إلىٰ التكامل في البناء الفني؛ إذ افتقدت الرابط الداخلي الذي يجمعها كلها في شكل متنامي البناء.

في حين أن سيرة الإمام "الغزالي" جاءت وحدة واحدة متكاملة تحكي حدثا متصلا ذا ترتيب زمني، وكل فصل فيها يقوم علىٰ الفصل السابق له من حيث استكمال مناقشة الفكرة العامة التي أرسىٰ قواعدها في بداية الكتاب وهي الرد علىٰ علماء الكلام والفلاسفة والباطنية والصوفية، وكل ذلك يتسق مع الوظيفة التي هدف إليها الإمام، كما أن هذا كاد يقرب الكتاب من جنس السيرة الذاتية بالمعنىٰ الحديث.

- **الصيغة التعبيرية:**

استخدم الكاتبان ضمير التكلم صيغة تعبيرية عنهما فالإمام الغزالي يقول: "سألتني، استجرأت، استفدته، قلت، أريد، أعلم، أقصد، حاولت، شفاني، ابتدأت..."، ومصطفىٰ محمود يقول: "كنت أدرج، بدأت أتساءل، وتغيب عني، .."، وهذا هو الأصل لمن يكتب سيرة ذاتية عن نفسه، لكننا نجد بعض الكتاب في هذا الجنس استعمل صيغة الغائب تعبيرا عن نفسه ولكل وجهة هو موليها؛ فمن استخدم صيغة التكلم فذلك من أجل نسبة الأحداث إلىٰ نفسه وهذا هو الطبعي في مثل هذا النوع من التدوين، ومن استخدم صيغة الغائب فذلك من أجل زرع الموضوعية في قلوب المتلقين وعقولهم، لكن هناك من يعترض علىٰ ذلك مثل "جلال أمين" إذ يقول: "وجدت بعض الكتاب يفضلون الإشارة إلىٰ أنفسهم بصيغة الغائب..،

وإذا كان البعض يرىٰ في هذه الصياغة تواضعا فإني أرىٰ فيها عكس ذلك، بل إنها تمكن الكاتب من كيل الثناء علىٰ نفسه، ونسبة الفضل إليها بأكثر مما تمكنه الإشارة المباشرة إلىٰ نفسه دون التواء"[1]، لكن هذا انطباع شخصي من "جلال أمين" لم يسق عليه دليلا، بل هو علىٰ عكس ما شاع بين النقاد من أن استخدام أسلوب التجريد يلبس الشخصية ثوب الموضوعية ويبعدها عن المبالغة.

ولعل الإمام "الغزالي" من أوائل الكتاب الذين استخدموا ضمير التكلم دون اللجوء إلىٰ مواربة التخفي وراء أسماء مستعارة، وكان ذاك فاتحة عهد لنوع جديد من السير التي تحدث فيها أصحابها عن أنفسهم باسمهم الحقيقي وبخاصة في العهد القريب كما عند: "توفيق الحكيم في: سجن العمر، والمازني في: قصة حياة، وميخائيل نعيمة في: سبعون، .." .

وقد سيطرت صيغة الفعل الماضي علىٰ الحكي عند الإمام "الغزالي": "قاسيته، استجرأت، استفدته، اجتويته، ازدريته ارتضيته، انجلىٰ، صرفني، دعاني، صرفني، ألان، وعدنا، نجا، ...." وهذا طبعيّ في مثل هذا النوع من السير التي يكتبها أصحابها رجوعا إلىٰ الزمن الماضي ليحكوا فيها ما عرض لهم في حياتهم من صراعات نفسية أو تحولات فكرية، إلا أننا لا نعدم حضور الزمن المضارع في سياق الحكي: "أبث، أحكي، يزعم، أريد، أعلم، ..." موظَفا للدلالة علىٰ استمرارية الحدث الذي سيق فيه؛ مثل استمرارية كل فرقة من الفرق في الزعم بأنهم الفرقة الناجية: "وكل فريق يزعم أنه الناجي"[2] ، أو للدلالة علىٰ مواصلة البحث

(١) ماذا علمتني الحياة سيرة ذاتية، جلال أمين، دار الشروق، الطبعة السادسة ٢٠٠٩م، ص١٨.

(٢) المنقذ من الضلال ص١٥٨.

والتعلم عند الإمام: "ولم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلىٰ الآن، وقد أناف العمر علىٰ الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم علىٰ كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ..."(١)، أو للدلالة علىٰ تجدد دعاوىٰ كل فرقة واستمرار مزاعمهم فيقول: "المتكلمون وهم يزعمون...، الباطنية وهم يزعمون...، الفلاسفة وهم يزعمون...، الصوفية وهم يدعون...."(٢)، أو لتقرير الحضور المتجدد لأقسام العلوم بالنسبة للغرض الذي يطلب منها: "أما الرياضية فتتعلق بعلم الحساب...، وأما المنطقيات فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيا وإثباتا..، وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع إلىٰ الحِكم المصلحية...، وأما الخلقيات فجميع كلامهم فيها يرجع إلىٰ حصر صفات النفس وأخلاقها...."(٣)، وبهذا نجد أن الإمام قد وظف الصيغة التعبيرية للفعل المضارع للدلالة علىٰ استمرارية الرأي وتجدد معتنقيه وبقاء أثره، مما يجعل الرد عليهم يصور حلقة نقاشية متزامنة استطاع الإمام فيها أن يلزمهم رأيه ويدحض افتراءاتهم.

أما "مصطفىٰ محمود" فنجد أن الغالب عنده في كتابه: "حوار مع صديقي الملحد" استعمال صيغة الفعل المضارع في الحكي؛ وهذا لأنه جعل سيرته حوارا بينه وبين صديقه الملحد، والحوار يستلزم المعاصرة

(١)المنقذ من الضلال ص١٥٩.

(٢) نفسه ص١٧٢.

(٣) نفسه ، ص١٩٣ وما بعدها.

الزمنية فيقول: "أنتم تقولون.." ، "ونحن نقول.."، "وأنت بالمثل لا تتصور..."، "وأنت كمن يظن.."، أما في كتابه: "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان" فغلبت صيغة الفعل الماضي علىٰ الحكي، وما جاء من صيغة الفعل المضارع كان في سياق الفعل الماضي إذ يقول: "كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره.. ربما كنت أدرج..، بدأت أتساءل..، كنت أقول.." مما يتناسب مع سمة هذا الفن الاستعادي.

- اللغة:

تعد السيرة الذاتية في جانب من جوانبها نشاطا لغويا يعرض حياة إنسان، وعندما ندرس هذا النشاط تتكشف الخبايا التي لم ينص صاحبه عليها صراحة، لكن دلالات المعاني تكشف لنا ما يعانيه صاحبه من شعور مقلق أو عاطفة مؤرقة انتابته وأثرت علىٰ اتجاهاته في الحياة، وتتجلىٰ لنا علائم الشعور بالقلق والحيرة عند الإمام "الغزالي" من خلال كلماته التي صدّر بها سيرته إذ يقول: "أما بعد: فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلىٰ يفاع الاستبصار، وما استفدته، أولاً من علم الكلام، وما اجتويته ثانيـًا من طرق أهل التعليم، القاصرين لدرك الحق علىٰ تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثـًا من طرق التفلسف، وما ارتخيته آخراً من طريقة التصوف وما انجلىٰ لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة وما ردني إلىٰ معاودتي بنيسابور بعد طول

المدة"[١]، فهذه الأفعال المتلاحقة: "قاسيته، واستجرأت، واجتويته، وازدريته، وارتخيته، وانجلىٰ، وصرفني، وردني" تكتنز شعور الإمام بالقلق والمعاناة والتشتت والصدود والعودة، مما يوضح كيف تلبثت نفسه بالعاطفة الإنسانية في أوج تشتتها وحيرتها، ثم الوصول إلىٰ الاستقرار والثبات علىٰ المذهب الذي استقر رأيه عليه واطمأن له قلبه.

وجاءت لغة الإمام انعكاسا للغة عصره الذي وجد فيه؛ فالقرن الخامس الهجري ليس ببعيد عن زمان الأصالة اللغوية التي لم تعرف اللغة الدارجة أو العامية لذا لم أجد عند الإمام إلا اللفظة العربية الرصينة التي تعكس تأصل البيان عنده وسلامة الأداء الأدبي، ويتضح هذا في عباراته البليغة وتراكيبه الفصيحة ومنها: "ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات، فقلت: الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المتيقنات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات.."[٢]، وقوله: "فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر إذ لم يمكن دفعه إلا بدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية.."[٣]، وهكذا جاءت عبارات الكتاب كلها علىٰ نسق واحد من الأسلوب الأدبي الذي يناقش القضايا العلمية بصبغة أدبية تأسر النفس وتأخذ العقل.

(١)المنقذ من الضلال ص١٥٦ وما بعدها.

(٢)المنقذ من الضلال ص١٦٤.

(٣)السابق ص١٦٨.

ويضاف إلىٰ ما سبق أن لغة الإمام قد وضح بها الخطاب الجدلي الإقناعي، وذلك بما ناقشه من المذاهب الخاطئة وسوق الأدلة علىٰ فسادها؛ ومن ذلك قوله في تفصيل المذاهب التي سيتولىٰ الرد عليها: "فابتدرت لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئا بطلب علم الكلام، ومثنيا بطريق الفلسفة، ومثلثا بتعليمات الباطنية، ومربعا بطريق الصوفية"[1]، وقوله: "وأن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، .. ومثال كلامهم فيه قولهم: إذا ثبت أن كل (أ) (ب) لزم أن بعض (ب) (أ) أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان. ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتىٰ يجحد وينكر؟ ...، نعم لهم نوع من الظلم لهذا العلم وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة لكنهم عند الانتهاء إلىٰ المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل..، فهذه الآفة أيضا متطرقة إليه"[2]، وقد تتبع الإمام هذه المذاهب بالنقاش والرد حتىٰ أثبت صحة مذهب الصوفية الذي تبناه ورضي به إذ يقول: "علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالىٰ خاصة"[3] .

(١)المنقذ من الضلال ١٧٤.

(٢) ينظر المنقذ من الضلال ص١٩٨، و١٩٩ بتصرف.

(٣) نفسه ص٢٥٧.

وأما "مصطفىٰ محمود" فامتزجت لغته العلمية بأسلوبه الأدبي مبدعا أعمالا جعلت العلم والأدب وجهين لعملة واحدة، مما جعل العلم يُقدَم بطريقة سهلة طيعة علىٰ الأفهام، وعن هذا يقول "جلال عشري": "ومصطفىٰ محمود من بين كتاب جيله أكثرهم اقترابا من هذا النمط، وأكثرهم تمثيلا لهذه الظاهرة، فالأعمال الجيدة في نتاجه الفكري تكاد تقطر أدبا، والأعمال الجيدة في نتاجه الأدبي تكاد تقطر فكرا، وتتجمع قطرات الفكر فوق صفحة الأدب لتشكل في النهاية واحدة من القضايا التي تلح علىٰ وجداننا المعاصر"(١)، وبهذا الأسلوب الأدبي السهل استطاع أن يناقش أعقد القضايا العلمية بكلمات يفهمها المتلقون دون كبير عناء؛ فيقول مثلا عن التوازن العظيم: "فإذا جئنا إلىٰ تشريح الإنسان نفسه فسوف نرىٰ المعجز والملغز من أمر هذا التوازن الدقيق المحسوب.. فكل عنصر له في الدم نسبة ومقدار.. الصوديوم.. البوتاسيوم.. الكالسيوم.. السكر.. الكولسترول.. البولينا. وأي اختلاف في هذه النسب ولو بمقادير ضئيلة يكون معناه المرض.. وإذا تفاقم الاختلاف فهو العجز والموت. والجسم مسلح بوسائل آلية تعمل في تلقائية علىٰ حفظ هذا التوازن طوال الحياة."(٢)، فرسم بهذه الكلمات تكوين الدم من العناصر وأنها متكاملة لا يغني وجود أحدها عن الآخر، وأن الجسم ينبغي أن يستوفي نسبة كل عنصر

(١) مصطفىٰ محمود شاهد علىٰ عصره، جلال عشري، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ص٢٠.

(٢) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص٨٥.

منها وأي زيادة أو عجز تؤدي إلىٰ المرض، ويتحدث عن التطور والتشابه التشريحي فيقول: "والسؤال هو: هل تولدت من الطين خلية أولىٰ تعددت وأنجبت كل تلك الأنواع والفصائل النباتية والحيوانية بما في ذلك الإنسان؟ أم أنه كانت هناك بدايات متعددة.. بداية تطورات إلىٰ نباتات، وبداية تطورت إلىٰ فرع من فروع الحيوان، كالإسفنج مثلا، وبداية أخرىٰ خرج منها فرع آخر كالأسماك، وبداية خرجت منها الزواحف، وبداية خرجت منها الطيور، وبداية خرجت منها الثدييات، وبداية خرج منها الإنسان، وبذلك يكون للإنسان جد منفصل، ويكون لكل نوع جد خاص به؟ إن التشابه التشريحي للفروع والأنواع والفصائل لا ينفي خروج كل نوع من بداية خاصة، وإنما يدل هذا التشابه التشريحي في الجميع علىٰ وحدة الخالق، وأن صانعها جميعا واحد، لأنه خلقها جميعا من خامة واحدة وبأسلوب واحد وبخطة واحدة.. هذه هي النتيجة الحتمية."[1]، فاستطاع أن يقدم هذه القضية الكبيرة بأسلوب سهل مشوق، معتمدا علىٰ إثارة الذهن بالاستفهام التحفيزي ثم تقديم الإجابة المبرهنة ليدلل علىٰ وحدة الخالق، وهذه اللغة الأدبية هي التي مكنته من إبداع مجموعاته القصصية: "أكل عيش، وعنبر ٧، وشلة الأنس، ورائحة الدم"، ومسرحياته: "الإسكندر الأكبر، والزلزال، والإنسان والطفل، وغوما، والشيطان يسكن في بيتنا، والطوفان"، ورواياته التي تعد من اللبنات الأولىٰ لأدب الخيال العلمي في الأدب العربي الحديث: "المستحيل، والأفيون، والعنكبوت، والخروج من

(١) حوار مع صديقي الملحد ص١٦٠وما تليها.

التابوت، ورجل تحت الصفر"، إلىٰ غير ذلك من المقالات التي عبرت عن فكره وأدبه.

وقد استجاب "مصطفىٰ محمود" لعدة نداءات كشفتها لغته المتنوعة، ومنها ما غلب عليه ومنها ما جاء في خفوت؛ فأما ما غلب علىٰ لغته فهي اللغة العلمية التي امتزجت بأسلوبه الأدبي الرصين وذلك ظاهر في كتابيه، وكذلك غلبت اللغة الحجاجية وبخاصة في كتابه الذي يحاجج فيه صديقه الملحد؛ فأكثر من الأسئلة المنطقية ومنها قوله: "الوحدة التشريحية في الجميع هي الخلية.. وهي في النبات كما في الحيوان كما في الإنسان، بنفس المواصفات، تتنفس وتتكاثر وتموت وتولد بنفس الطريقة. فأية غرابة بعد هذا أن نقول إن الخالق واحد؟.. ألا تدل علىٰ ذلك وحدة الأساليب؟!"(١)، وقوله: "ودعونا نسخر منه بدورنا.. هو وأمثاله ممن لا يعجبهم شيء. هؤلاء الذين يريدونها جنة.. ماذا فعلوا ليستحقوها جنة؟"(٢)، وقوله: "ونحن نصحح معلومات الدكتور فنقول: أولا: إننا لسنا ذرة ولا هباء في الكون.. وإن شأننا عند الله ليس هينا بل عظيما.. ألم ينفخ فينا من روحه؟.. ألم يُسجد لنا ملائكته؟.. ألم يعدنا بميراث السماوات والأرض؟"(٣) ، وقوله: "ثم دعونا نسأل الدكتور: أيكون الله أكثر عدلا في نظره لو أنه ساوىٰ بين الظالمين والمظلومين وبين السفاحين وضحاياهم؟، وهل العدل في نظر الدكتور أن يستوي الأبيض والأسود. وللذين يستبعدون علىٰ الله أن يعذب نقول: ألا يعذبنا الله بالفعل في دنيانا؟.. وماذا تكون الشيخوخة والمرض

(١)حوار مع صديقي الملحد ص٣٢.

(٢) نفسه ص٥١.

(٣)نفسه ص٥٩.

والسرطان إلا العذاب بعينه. ومن خالق الميكروب؟!.. أليست جميعها إنذارات بأننا أمام إله يمكن أن يعذب."[1]، كما ظهرت لغته الجدلية كثيرا في سيرته ومنها قوله: "وهناك من عاش أيام المسيح ورآه يحيي الموتىٰ.. أما نحن فلا نعلم عن هذه الآيات إلا سمعا.. وليس الخبر كالعيان.. وليس من رأىٰ كمن سمع.. وطوبىٰ لمن آمن بالسماع بدون أن يرىٰ معجزة، والويل للذين شاهدوا ولم يؤمنوا"[2]، وقوله: "ولكن ألا نحتوي علىٰ هذا الكون ونستوعبه بعقلنا وندرك قوانينه وأفلاكه ونرسم لكل كوكب مداره.. ثم ينزل رائد الفضاء علىٰ القمر فيكتشف أن كل ما استوعبناه بعقلنا علىٰ الأرض كان صحيحا.. وكل ما رسمناه كان دقيقا. ألا يدل ذلك علىٰ أننا بالنظر إلىٰ روحنا أكبر من الكون وأننا نحتوي عليه وأن الشاعر كان علىٰ حق حينما خاطب الإنسان قائلا:

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوىٰ العالم الأكبر"[3]

وقوله: "أما القول بأزلية الوجود لأن العدم معدوم والوجود موجود، فهو جدل لفظي لا يقوم إلا علىٰ اللعب بالألفاظ. والعدم في واقع الأمر غير معدوم، وقيام العدم في التصور والفكر ينفي كونه معدوما"[4]، وقد تبنىٰ هذا الاتجاه مستندا إلىٰ حقيقة أن: "جوهر الإسلام عقلاني منطقي يقبل

(١) نفسه ص٦٧.

(٢)حوار مع صديقي الملحد ص٥٥ و٥٦ بتصرف.

(٣)نفسه ص٦٠. والبيت ينسب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ينظر: الكشكول، بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، ت: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ بيروت ١٤١٨ هـ -١٩٩٨م، ج٢ص٧٧.

(٤) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص١٦.

الجدل والحوار ويحض علىٰ استخدام العقل والمنطق"[١]، وكان من الطبعي أن يطغىٰ هذا الخطاب الجدلي علىٰ غيره؛ إذ إن موضوع السيرة هو بيان فساد المذاهب الضالة وهدم مبادئهم ولا يتأتىٰ ذلك إلا بهذا اللون من الخطاب.

ونراه يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية حتىٰ إن الصفحات التي خلت من الاستشهاد بالآيات قليلة جدا، وهذا يدل علىٰ فهمه الجيد لمقاصد الآيات وتوظيفها في مواضعها الملائمة، مما يبين عمق الإيمان عنده والتعلق بالقرآن الكريم تقديسا واعتقادا.

وكذلك نجد استجابته لنداء التصوف داخله وذلك باستشهاداته بكلامهم واستئناسه بآرائهم، بل ويزيد علىٰ ذلك تأييده ما ذهبوا إليه وعدم الاعتراض عليه، ومنها قوله: "أما ابن عربي فكان رده علىٰ هذا السؤال "سؤال من خلق الخالق".. بأنه سؤال لا يرد إلا علىٰ عقل فاسد.. فالله هو الذي يبرهن علىٰ الوجود ولا يصح أن نتخذ من الوجود برهانا علىٰ الله"[٢] ، وقوله: "إنه العلم مرة أخرىٰ.. ولكنه هذه المرة العلم "اللدني" ولهذا يلخص أبو حامد الغزالي مشكلة المخير والمسير قائلا في كلمتين الإنسان مخير فيما يعلم مسير فيما لا يعلم"[٣] ، وقوله: "وعلم الله بنا وبقلوبنا يمتد إلىٰ ما قبل نزولنا في الأرحام حينما كنا نفوسا نورانية حول عرشه..

(١) حوار مع صديقي الملحد ص ٨٣.

(٢) حوار مع صديقي الملحد ص٢٩.

(٣) نفسه ص٤٣.

فمنا من التف حول نوره.. ومنا من انصرف عنه مستمتعا بالملكوت وغافلا عن جمال خالقه.. فاستحق الرتبة الدنيا من ذلك اليوم وسبق عليه القول.. هذا كلام أهل المشاهدة"[١]، وقوله: "وأن الإنسان كما يقول الصوفية هو الكتاب الجامع والكون صفحاته"[٢]، وقوله: "ويقول ابن عربي: إن الرحمة بالنسبة لهؤلاء أنهم سوف يتعودون علىٰ النار.. وتصبح تلك النار في الآباد المؤبدة بيئتهم الملائمة"[٣]، وقوله عن تفسير حضور الأرواح بعد موت صاحبها: "وربما كان رأي الصوفية المسلمين أكثر الآراء تفسيرا لما يحدث"[٤]، "وقوله: "يقول الله في الحديث القدسي الذي يفسره الصوفي محمد بن عبد الجبار: كيف تيأس مني وفي قلبك سفيري ومتحدثي"[٥]، وقوله: "والصوفية يقولون إن جهنم هي مقام البعد (البعد عن الله) والحجب عن الله.. والجنة هي مقام القرب بكل ما يتبع ذلك القرب من سعادة لا يمكن وصفها"[٦]، وهذه الآراء الصوفية تدل علىٰ تأثره بالتصوف وأهله وأفكاره، ومن ثم تدل علىٰ الرابط الذي جمع بينه والإمام "الغزالي" في التمذهب بمذهب التصوف وإن كان ذلك أصلا عند الإمام "الغزالي" تأثرا عند "مصطفىٰ محمود"، كما دل الأسلوب اللغوي علىٰ الرابط بينه

(١) حوار مع صديقي الملحد ص٥٧ .

(٢) نفسه ص٦٠ .

(٣) نفسه ص٦٢.

(٤) نفسه ص١٠٧.

(٥)نفسه ص١١١.

(٦) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص٦٣.

والإمام من حيث الصبغة الأدبية التي استطاعا أن يعبرا بها عن القضايا العلمية التي تناولاها في سيرتهما.

علىٰ أننا لا نعدم استجابته للغة الدارجة التي ظهرت في تعابيره التي جاءت علىٰ استحياء في كتابيه ومنها: "فسؤالك أقرب ما يكون إلىٰ الاستدراج والمخادعة وفيه مناقضة للنفس هي اللكاعة بعينها"(١)، وقوله: "وأين هذا الرجل من المتدين المسلم الذي يعتبر نفسه مسئولا عن سابع جار"(٢)، وقوله: "فقدم للكل حفلة شاي في الآخرة"(٣)، ويكرر التعبير نفسه في قوله: "هل المفروض أن يقدم لهم الله حفلة شاي لأن الله محبة؟"(٤)، وقوله: "أحيانا تكون مجرد تسريحة الشعر التي نختارها كذبة، الكهل الذي يسرح شعره خنافس ليبدو أصغر من سنه يكذب"(٥)، فهذه التعابير- وإن ظهرت في خفوت- تدل علىٰ استجابته للغة الحياة اليومية الدارجة وهذا يدل علىٰ أن شخصيته لم تكن معقدة أو مجافية للواقع الذي يعيش فيه بل كان ذا حضور وتواصل مع الآخرين متوجا ذلك بما قدمه من إسهامات جليلة تخدم مجتمعه.

وقد قسم "وليام هوارت" السيرة الذاتية إلىٰ ثلاثة أنماط هي: السيرة الذاتية الخطابية، والدرامية، والشعرية، وهو تقسيم أولي غير دقيق فقد

(١) حوار مع صديقي الملحد ص٥٨.

(٢) نفسه ص٧٠.

(٣) نفسه ص٦٧.

(٤) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص٦١.

(٥) نفسه ص٧١.

اعترض عليه "فيليب لوجون" إذ يمكن أن تأتي سيرة لتجمع بين نمطين أو تكون ذات نمط رابع[1]، وهذه الأنماط هي التي أطلق عليها "إبراهيم عبدالدايم": القالب الروائي، والقالب التفسيري التحليلي، والقالب الذي يجمع بين التحليل والتصوير[2]، وعليه فإن هاتين السيرتين تندرجان تحت السير الذاتية الخطابية علىٰ رأي "هوارت" والقالب التفسيري التحليلي علىٰ رأي "إبراهيم عبدالدايم"؛ إذ إنهما عمدا إلىٰ استخدام المقالة النثرية مستعينين بتقرير الحقائق أو مناقشتها وشرحها في صورة تقريرية بعيدة عن التصوير والخيال، كما أن الكاتبين يتحدثان إلىٰ المتلقين أكثر مما يكتبان إليهما؛ فأسلوب الاستفهام الشائع في سيرتهما موجه إلىٰ المتلقين، والجمل التي تخاطب المتلقين غالبة علىٰ بناء السيرتين.

- الشخصيات:

تتمحور السيرة الذاتية حول صاحبها لترصد التحولات التي تنتاب حياته وتؤثر في مسارها، وفي هذه الدراسة الوظيفية نسلط الضوء علىٰ ما تقوم به الشخصية وما ينتج عن هذا العمل، وهذا يتماسّ مع منهج "بروب" الوظائفي الذي يهتم بوظيفة الشخصية أكثر من الاهتمام بالشخصية لأنه ينظر إلىٰ ما تقوم به الشخصية من فعل دون النظر إلىٰ ذات الشخصية، إذ يقول: "ونعني بالوظيفة ما تقوم به الشخصية من فعل محدد من منظور دلالته في سير الحبكة"[3]؛ فالشخصيات تتعدد والأفعال تتشابه،

(١) ينظر السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي ص٨٧.

(٢) الترجمة الذاتية في الأدب العربي ص٨٢.

(٣) مورفولوجيا القصة، فلاديمير بروب، ترجمة د. حسن عبدالكريم وسميرة بن عمو، طبعة دار شراع للدراسات والنشر والتوزيع بسوريا، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦ه ١٩٩٦م، ص٣٦، ٣٧.

وما يهمنا هنا هو ما قامت به الشخصيات في تحديد مسار حياتها والتأثير في المتلقين.

وقد بدت شخصية الإمام "الغزالي" في سيرته قوية مؤثرة في الآخرين، غير منساقة للمذاهب المتنوعة من حوله ولا لأصحابها، بل كان له رأيه الذي تبناه بعد دراسة مستفيضة لتلك المذاهب التي سادت عصره، كما جاءت شخصيته مبكرة النضج إيجابية متفاعلة مع الأحداث من حولها وآخذة يد من حولها إلىٰ طريق الهدىٰ، وقد بدا ذلك جليا في مناقشته المذاهب المعاصرة له والرد عليها.

أما "مصطفىٰ محمود" فلم تأت شخصيته علىٰ نسق واحد، بل حدث لها تحول كبير في البناء العلمي والتكوين الفكري أدىٰ به إلىٰ مغايرة الأفكار والمعتقدات، وسيأتي الحديث بشيء من التفصيل عن التحول عند الشخصيتين في الحديث عن: "البوح واستبطان الذات" في المبحث القادم.

وقد جاءت سيرة الإمام "الغزالي" أحادية الشخصية؛ فقد كان هو المتحدث فقط، وأما الشخصيات الأخرىٰ صاحبة المذاهب المخالفة له التي ناقشها فجاء كلامها نقلا علىٰ لسانه هو، وهذا نابع من التركيز علىٰ ما يريد أن يقدمه من عرض للمذاهب ومناقشاتها، وتصحيح ما يراه صحيحا، وتخطئة ما يراه خطأ، كل هذا بأدلته النقلية والعقلية، دون التطرق لأي حوار يُسمح معه بوجود أصوات متعددة قد تنحرف به عن المادة الفكرية المذهبية التي يريد طرحها بين يدي المتلقي.

أما سيرة "مصطفىٰ محمود" فقد سار علىٰ منهج الإمام "الغزالي" في كتابه: "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان"؛ فلم يظهر إلا صوته هو، وأما في

كتابه: "حوار مع صديقي الملحد" فقد جاءت سيرته ثنائية الصوت: صوته هو وصوت صديقه الملحد، وإن كان صديقه هو نفسه في مرحلة سابقة، لكن نظام المحاورة هنا يوحي بوجود صوتين متحدثين؛ مما جعل هذا الجزء من سيرته أكثر فنية وأدخل في هذا الجنس الأدبي من قسيمه في كتابه الآخر.

- البنية الزمانية والمكانية وأثرهما في مسار الأحداث:

إن ثمة فرقا آخر بين السيرة الذاتية ورواية السيرة الذاتية وهو الترتيب الزمني؛ "ففي كل عمل قصصي يوجد زمانان متكاملان هما: زمن القصة، وزمن الخطاب؛ فزمن القصة مرتبط بالترتيب المنطقي للأحداث"[1] ، فالكاتب في الفن الأول يلتزم بالترتيب الزمني غالبا، أما في الفن الثاني فهو ليس مطالبا بذلك الترتيب، يقول د "يحيي عبدالدايم": "أما الروائي فإنه ليس مقيدا بمثل هذا الترتيب وهذا التدرج وله مطلق الحرية في أن يختار لروايته ما يشاء من بدايات، كما أن له مطلق الحرية في الارتكاز حول مواقف ومشاهد وشخصيات بعينها، حين يعتمد علىٰ النقل التاريخي أو التصوير الخيالي، لكنه يطالب بالترتيب الزمني إذا هو قصد من روايته أن تكون ترجمة ذاتية له"[2]، لكن هذا التقيد قد يطلق علىٰ السيرة الذاتية قبل الاستعانة بتقنيات الفن الحكائي الحديث؛ فقد استخدم "طه حسين" مثلا تقنية الاستباق الزمني في الفصل الحادي عشر الذي ختم به الجزء الأول من سيرته "الأيام" وذلك عندما أراد أن يوازن بين حياته وحياة ابنته

(١) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٩٩١م، ص٧٣.

(٢) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص٢٨.

"أمينة" في مرحلة الصبا، ثم عاد إلىٰ مقتضىٰ الترتيب الزمني مرة أخرىٰ واستهل الفصل الأول من الجزء الثاني بحياته في الأزهر، وهذا الاستباق ينمي عملية التشويق لدىٰ المتلقين؛ إذ يقطع الحدث في مرحلة معينة ليسلط الضوء علىٰ مشهد محدد ثم يعود لاستكمال الحدث مرة أخرىٰ، والكاتب حين يفعل ذلك إنما يراعي الحركة النفسية عنده "فزمن الخطاب غير مرتبط بالترتيب المنطقي للأحداث"(١)، وإنما يرتبط بما يريد الكاتب أن يوصله للمتلقي، ولذا جاء هذا الاستباق عند "طه حسين" ليسلط الضوء علىٰ مفارقة بين حياته وحياة ابنته في سن معينة.

وقد كشف الإمام الغزالي عن بنيته الزمانية في سيرته مراعيا الترتيب الزمني لأن الترتيب هنا مهم من ناحية كشف الأحداث التي مرّ بها في حياته، وعلاقة كل مرحلة من عمره بالتي تشفعها؛ فهي مراحل متتابعة تمثل تنامي الصراع النفسي لديه، فلزم من ذلك مراعاة الترتيب، وبدأ بقوله: "لم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلىٰ الآن وقد أناف السن علىٰ الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة وأتهجم علىٰ كل مشكلة.."(٢)، فقد بدأ الإمام حياته بطلب العلم اليقيني الذي لا يبقىٰ معه ريب، وبعد الدراسة المستفيضة للمذاهب الموجودة في عصره انحصرت أصناف الطالبين عنده في أربع فرق:

"١- المتكلمين: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

(١) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص٧٣.

(٢) المنقذ من الضلال ص١٥٩.

٢- الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣- الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤- الصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة"[١]، وبدأ بدراسة كل مذهب علىٰ حده مطالعة لكتبه وأقوال علمائه المحققين، بل تعدت الدراسة عنده إلىٰ التصنيف في الرد علىٰ آرائهم وبخاصة آراء المتفلسفين وعنهم يقول: "وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت ذلك في كتاب (المستظهري) أولا، وفي كتاب (حجة الحق) ثانيا، وهو جواب كلام لهم عرض علي ببغداد، وفي كتاب (مفصل الخلاف) الذي هو اثنا عشر فصلا ثالثا، وهو جواب كلام عرض علىٰ بهمدان، وفي كتاب (الدرج) المرقوم بالجداول رابعا وهو من ركيك كلامهم الذي عرض علي بطوس، وفي كتاب (القسطاس) خامسا وهو كتاب مستقل بنفسه مقصوده بيان ميزان العلوم وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم لمن أحاط به"[٢]، وهكذا ظل الإمام يدرس ويُدرّس لكن نيته في ذلك آنئذ لم تكن خالصة لله، فقد داخله حب الشهرة وانغمس في طلب العلائق الدنيوية ويصف هذا بقوله: "فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين

(١)المنقذ من الضلال ص١٧٢.

(٢) السابق ص٢٣٥ وما بعدها.

وأربعمائة وآخرها ذو الحجة"[١] ، فهذه هي المرحلة الثانية من حياته، وهي المرحلة التي تلت بدايته الأولىٰ حين كان يدرس العلوم الدنيوية والأخروية، ومثاقفة الآخر حتىٰ يطمئن قلبه إلىٰ أرشد أمره، وهذا المزاج قابله صراع نفسي عميق أثّر علىٰ الإمام وألزمه السكوت نتيجة حزن القلب الذي بدوره أورثه عقدة اللسان، بل تعدىٰ الأمر إلىٰ عسر الهضم وضعف القوىٰ، وقد فشل الأطباء في مداوته واستقر الرأي علىٰ أن الإمام معيون وليس للطب مجال فيه، فقرر الإمام الخروج من بغداد وعدم العودة إليها مرة أخرىٰ، وعقد النية علىٰ الاستقرار بالشام، وكانت حياته بالشام عامين من العزلة والخلوة بالنفس مجاهدة وتزكية وتصفية، وعن هذا يقول: "كنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها علىٰ نفسي، ثم رحلت منها إلىٰ بيت المقدس، أدخل الصخرة وأغلق بابها علىٰ نفسي"[٢]، ثم دعاه داعي الحج فقدم مكة والمدينة مستمدا بركاتهما، وبعدها استجاب لنداء الأولاد فعاد إلىٰ العراق ومكث بها عشر حجج مؤثرا العزلة والخلوة مصفيا القلب للذكر، وفي هذه المدة انكشف له من الأسرار مالا يمكن عده وحصره، ولم يشأ أن يفصح عنها إلا بمقدار ما ينتفع به، وهي أنه تأكد من صحة مذهب أهل التصوف وعن هذا يقول: "علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالىٰ خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكىٰ

(١) نفسه ص٢٥١.

(٢)المنقذ من الضلال ص٢٥٥.

الأخلاق.."[1]، وهذا اعتراف بيّن من الإمام بأنه ارتضىٰ مذهب الصوفية مذهبا له، وطريقهم طريقا له وأخلاقهم أخلاقا له.

ثم نهض الإمام إلىٰ "نيسابور" بعد مشاورة جماعة من أرباب القلوب، وتواتر منامات الصالحين التي شهدت بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد، "وكان ذلك في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة"[2]، وبدأ نشر العلم بقوله وعمله، سائلا الله الإصلاح لنفسه ولغيره.

فهذه هي البنية الزمنية التي تصف حالات المجاهدة التي انغمس فيها الإمام بين التعلم والعزلة، والتفكر والإبصار والمقارنة إلىٰ الوصول إلىٰ ما انتهىٰ إليه، وهذه البنية الزمنية الطويلة التي زادت علىٰ عشر سنين تكشف عن دقة النموذج المعرفي الإسلامي الذي لم يكن وليد أيام أو شهور أو سنوات قلال، بل رسخت قدمه بعد سنوات طوال من العلم والمناقشة لآراء الطوائف والفرق الأخرىٰ، وبذل النفس والنفيس من ترك الولد والبلد في سبيل بنائه علىٰ أسس داعمة، والغزالي هنا يمثل واحدا من آلاف العلماء الأفذاذ الذين أسهموا في بناء هذا النموذج المعرفي الذي أنار الوجود مذ وضع نبينا "محمد" – ﷺ- بنيانه علىٰ تقوىٰ من الله ورضوان.

ولايزال نهر العطاء جاريا علىٰ هذه الخطوات المباركات، فبعد ما يقارب تسعمائة عام يأتي "مصطفىٰ محمود" ليمر بأحداث متشابهة جعلته يواصل المجاهدة مع النفس والعلم وعن هذا يقول: "واحتاج الأمر

(١) نفسه ص٢٥٦.

(٢)المنقذ من الضلال ص٢٩٣.

إلىٰ ثلاثين سنة من الغرق في الكتب وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر.. ثم تقليب الفكر علىٰ كل وجه لأقطع الطريق الشائكة من الله والإنسان إلىٰ لغز الحياة إلىٰ لغز الموت إلىٰ ما أكتب اليوم من كلمات علىٰ درب اليقين"[١] ، فقد تقلب بين شتىٰ المذاهب إلىٰ أن استقر رأيه علىٰ الإسلام دينا ومذهبا، ويصف هذا التحول بقوله: "ألم تكن مثلنا منذ سنوات تسكر كما نسكر وتلهو كما نلهو وتسعد بهذه السعادة الحيوانية التي نسعد بها وتكتب الكفر بعينه في كتابك "الله والإنسان" فتسبق به إلحاد الملاحدة، فماذا غيرك من النقيض إلىٰ النقيض؟! لم يكن ما كتبت كفرا.. بل تساؤلا.. وطريقا من الشك المخلص أفضىٰ في النهاية إلىٰ الإيمان بفضل الله وتوفيقه"[٢]، ثم نراه يسير علىٰ درب الإمام "الغزالي" ويستشهد بكلامه في مواضع عدة من كتابيه، منها: "ولهذا يلخص أبو حامد الغزالي مشكلة المخير والمسير قائلا في كلمتين: الإنسان مخير فيما يعلم.. مسير فيما لا يعلم.."[٣] ، وأيضا: "ولهذا يقول الفيلسوف أبو حامد الغزالي: "إن نقص الكون هو عين كماله مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته ولو أنه استقام لما رمىٰ"[٤]، ويقول تعليقا علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا

(١) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص٨.

(٢) حوار مع صديقي الملحد ص١٩٦.

(٣) نفسه ص٤٤.

(٤) نفسه ص٥٠.

فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ (المجادلة:١٨): "وهؤلاء هم الذين سوف يسحبون علىٰ وجوههم ويوثقون في السلاسل.. وأبو حامد الغزالي يفسر هذه السلاسل بأنها سلاسل الأسباب"[١]، وهذا يدل علىٰ تأثره بالإمام "الغزالي"، كما يدل علىٰ منهجية النموذج المعرفي الإسلامي العربي قديما وحديثا واتحادها، مما يفسر بقاء هذا النموذج طوال هذه المدة ويوحي باستمراره.

وكان من الطبعي أن يكتسب "مصطفىٰ محمود" النظرة العلمية من دراسته فيقول: "وتعلمت مع ما تعلمت في كلية الطب.. النظرة العلمية.. وأنه لا يصح إقامة حكم بدون حيثيات من الواقع وشواهد من الحس. وأن العلم يبدأ من المحسوس والمنظور والملموس وأن العلم ذاته هو عملية جمع شواهد واستخراج قوانين"[٢]، فقد محص الآراء وانكب علىٰ مكتبة البلدية بطنطا مذ صباه، وعاش سنوات من الضبابية الفكرية إلىٰ أن هداه الله، ويصف هذه المدة بقوله: "وعشت سنوات في هذا الضباب الهندي وهذه الماريجوانا الصوفية، ومارست اليوجا وقرأتها في أصولها وتلقيت تعاليمها علىٰ أيدي أساتذة هنود. وسيطرت عليّ فكرة التناسخ مدة طويلة، وظهرت في روايات لي مثل العنكبوت والخروج من التابوت. ثم بدأت أفيق علىٰ حالة من عدم الرضا وعدم الاقتناع. واعترفت بيني وبين ونفسي أن هذه الفكرة عن الله فيها كثير من الخلط. ومرة أخرىٰ كان العلم هو دليلي

(١) نفسه ص١٥١.

(٢) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص١٠.

ومنقذي ومرشدي"[١]، وحين نقارن بين ما فعله "مصطفىٰ محمود" وما فعله الإمام "الغزالي" نجد أن هذا ما طبقه الإمام في دراسته لمذاهب الفلاسفة والمناطقة والباطنية والمتكلمين، من انكباب علىٰ الكتب والعزلة والتفكر وتفنيد الآراء بعد مناقشتها مناقشة علمية، ثم تبيين الطريق السويّ، فيقول عن إيمانه بالله وبالنبوة وباليوم الآخر: "فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي، لا بدليل معين محرر، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها"[٢]، مما يؤكد أن الحوزات الفقهية والمجامع العلمية في ماضينا العريق قامت علىٰ منهجية ودراسات لا تقل عن الجامعات والمعاهد الحديثة بل تكاد تفوقها في أفضلية السبق عليها والوصول إلىٰ الأسس التي قام عليها العلم الحديث، وهذا التشابه في طريقة التناول واضح وبيّن مما يثبت تأثر "مصطفىٰ محمود" بالإمام "الغزالي" في طريق المجاهدة والوصول.

- **الخيال:**

تعد السيرة الذاتية قالبا ذا طابع خاص ظاهره يقدم التدوين التاريخي وباطنه يعكس روح الأدب والفن، وهذه صورة عميقة تستوجب كاتبا يعي كيف يوائم بين التاريخ والفن، بل إنه أمر قد يجعل كاتب السيرة الذاتية محددا بأحداث بعينها لا يستطيع الفكاك منها أو المواربة عن حكايتها؛ "فعندما يريد الفنان أن يكتب روايته يجد نفسه حرا في استخدام إمكانيات خياله كافة، أما إذا أراد أن يكتب سيرة يجد أن مادته قصيرة ومحدودة، ودور

(١)السابق ص ١٣.

(٢) المنقذ من الضلال ص٢٤٨.

الخيال هو في جمع هذه المادة وتشكيلها"[1] ، فالسيرة الذاتية – بوصفها فنا فنا أدبيا– لا يمكن أن تخلو من الخيال وإن كان ما يكتبه صاحبها هو حقائق ذاتية عاشها في حياته، إلا أنه يستطيع أن يصوغ مادته بطريقة ينشط معها الخيال والتصوير، ويمزج بين الحقيقة والخيال مزجا يجعل القارئ في حالة إثارة وتشويق دائما، "ولكاتب السيرة أن يطلق لخياله العنان كما يحلو له، وكلما أمعن في خياله كان أفضل، وذلك في طريقة ربطه لمواده بعضها ببعض، ولكن عليه ألا يختلق مواده"[2]، ولا يفسر ذلك أن الكاتب محظور عليه أن يتخيل، لا "فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي"[3] ، وبهذا نجد أن الخيال عنصر فاعل في بناء السير الذاتية، بل عنصر واجب لأن الكاتب يستدعي مادته من الذاكرة وقد يكون قد مضىٰ علىٰ تلك الأحداث أزمان وأزمان، وأصبحت طي النسيان، وهنا يأتي دور الخيال ليساعده علىٰ استعادة الأحداث ونسجها والتئامها، وهذا هو دور الخيال عند كتابة السيرة الذاتية التي تنتقي الأحداث ترتبها ترتيبا فنيا.

علىٰ أن فن السيرة الذاتية قد يساق في شكل رواية فنية مكتملة الأركان كما نجد عند "طه حسين": في أيامه، أو عند "توفيق الحكيم": في زهرة

(١) فن السيرة الأدبية، ليون إدل ترجمة صدقي خطاب، دار العودة بيروت الطبعة الأولىٰ١٩٨٨م، ص٢٣.

(٢)فن السيرة الأدبية ص١١٨.

(٣) فن السيرة، إحسان عباس ص١٠٥.

عمره أو سجنه وغيرهما، وقد يأتي فن السيرة الذاتية متمثلا في الكشف عن تجربة محددة من تجارب العمر مثلما نجد في سيرة الإمام "الغزالي" أو "مصطفىٰ محمود"، وفي هذه الحالة تكون السيرة موجهة وظيفيا إلىٰ المتلقين؛ إذ ليس الغرض هنا سرد الأيام والأحداث التي عاشها صاحبها، والتفصيلات التي عرضت له في حياته بقدر أن تكون سردا لقضية عاشها وعانىٰ منها معاناة ملكت عليه أكظامه وأخذت منه نفسه من أقطارها، واستوجب ذلك منه أن يبحث ويفتش حتىٰ يصل إلىٰ طريق الحق، وعندئذ يرىٰ أنها تجربة ذات قيمة تستحق أن تدون لينتفع بها من يأتي بعده فيقوم بذلك التدوين.

وقد تمثل الخيال عند الكاتبين في ترتيب الأحداث وانتقائها وبنائها بناء متراكبا، فالإمام "الغزالي" سرد رحلته من بلده "طوس" متنقلا بين "مكة، والشام" والعراق، ونيسابور" موظفا الزمان والمكان لحبك سيرته وبنائها بناء يمثل حكاية مترابطة، مستثمرا ترتيب الأحداث التي عرضت له ترتيبا متناميا مقدما بذلك الصراعين العقلي والنفسي اللذين أرقا حياته، وكيف أنه تغلب عليهما بالعلم تارة والخلوة تارة ومجالسة الصالحين تارة أخرىٰ، حتىٰ فتح الله له طريق الحق والاهتداء إلىٰ أرشد أمره.

وأما "مصطفىٰ محمود" فجاء الخيال عنده متمثلا في تذكر المواقف التي مرّ بها في حياته الأولىٰ وما تمخض عنها من أفكار غير سوية جرفته إلىٰ عالم من الإلحاد والتيه، وبعدما رجع إلىٰ رشده وأناب إلىٰ الله وتبرأ من هاته الأفكار دوّن سيرته حتىٰ تكون مرجعا لمن تنتابه مثل هذه الأفكار، فكان الخيال عنده قائما علىٰ الانتقاء والاختيار من بين أحداث حياته ما يختص بالقضية التي يتحدث عنها، من حيث تذكر الآراء ومناقشتها ودحضها،

وعن هذا الانتقاء يقول العلامة "غنيمي هلال": "الصدق الفني ليس معناه حكاية الواقع كما هو، أو سرد رواية التاريخ كما حدثت، إذ الفن يستلزم – بطبعه – الاختيار بين الأحداث وترتيبها علىٰ نحو خاص مقنع فنيًا، بحيث توحي في عالمها المصور في القصة بالقضايا التي يؤمن بها القاص ويدعو إليه"(١)، وبالفعل استطاع "مصطفىٰ محمود" أن يقدم لنا مناقشة علمية عقلية روحية للقضايا الشائكة التي تحدث عنها في سيرته، كما استطاع أن يوضح لنا إيمانه العميق الذي جاء بعد جهاد فكري روحي، وتطواف بين شتىٰ أنواع المعارف والعلوم حتىٰ وصل إلىٰ ما أنهىٰ حياته عليه من حياة التوحيد والإيمان والسكينة.

وقد خفت الخيال في بعض سيرتهما بما أظهر المباشرة في هاته المواضع، وتمثل ذلك عند الإمام "الغزالي" في الأوامر التي وجهها إلىٰ المتلقي بقوله: "فاسمع الآن حكايتهم"(٢)، "اعلم أنهم علىٰ كثرة فرقهم"(٣)، "اعلم أن علومهم"(٤)، والأسلوب الجدلي المتمثل في قوله عند الرد علىٰ الآراء التي يناقشها: "فإن قال.. فأقول"(٥) المتكرر في سيرته.

(١) النقد الأدبي الحديث مصادره الأولىٰ، تطوره، فلسفاته، مذاهبه، محمد غنيمي هلال، دار ومطابع الشعب الطبعة الثالثة ١٩٦٤م، ص٥٤٧

(٢) المنقذ من الضلال ص١٨١.

(٣) نفسه ص١٨٢.

(٤) نفسه ص١٩٣.

(٥) نفسه وقد ذكرها الإمام وما يشبهها من الصيغ في صفحات: ص٢٢١، ص٢٢٤، ص٢٢٦، ص٢٢٨، ص٢٢٩، ص٢٣٠، ص٢٣٣،... .

وتمثلت هذه المباشرة عند "مصطفىٰ محمود" في الأسئلة الخطابية التي كثرت في سيرته: "ألم تقتل الإسكندر الأكبر بعوضة؟[١]، "هل خيرت خيرت في ميلادي وجنسي وطولي وعرضي ولوني ووطني؟ هل باختياري تشرق الشمس ويغرب القمر؟ هل باختياري ينزل عليّ القضاء ويفاجئني الموت؟ وأقع في المأساة فلا أجد مخرجا إلا الجريمة؟"[٢]، وغير ذلك كثير من الأسئلة التي تملأ الكتابين، بالإضافة إلىٰ الأسلوب الجدلي ذاته الذي وجد عند الإمام من قبل إذ يقول: "تقولون .. نقول"[٣].

وتبقي سيرة الإمام "الغزالي" هي الأقرب إلىٰ فن رواية السيرة الذاتية؛ بما تشتمل من أحداث متصلة وتسلسل حكائي، وراوٍ يسرد تفاصيل حياته، ولولا كثرة النقاش والتدليل بالنقل والعقل، ومقابلة الآراء لكانت رواية سيرة ذاتية، لكن سيرة "مصطفىٰ محمود" لم تأت بهذا القرب من فن رواية السيرة الذاتية؛ فالأحداث ليست متصلة وليس بها تسلسل حكائي، وما فيها إلا راوٍ يسرد علينا أياما من حياته الأولىٰ والرد علىٰ ما احتوته من أفكار، وزاد علىٰ ذلك كثرة الآراء العقلية والمصطلحات العلمية التي زخرت بهما السيرة مما يكاد يجعلها أشبه ببحث علمي يقدمه صاحبه إلىٰ مؤتمر، ولولا

(١) حوار مع صديقي الملحد ص٣٣.

(٢)نفسه ص٣٥.

(٣) ذكرها "مصطفىٰ محمود" في كتابه "حوار مع صديقي الملحد وما يشبهها من الصيغ في صفحات ص٢٧، ص٣٥، ص٤٧، ص٥٢، ص٥٩، ص٦٨، ....، وفي كتابه "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان" ص٧، ص٢٥، ص٤٢، .... .

اللغة الأدبية التي يتقنها "مصطفىٰ محمود" لما عُد هذان العملان من باب السيرة الذاتية

المبحث الثاني: وجوه التأثر الفكرية بين الكاتبين

لقد مر الكاتبان بمراحل متشابهة من القلق الفكري والتشتت النفسي ما دفعهما إلىٰ دراسة المذاهب العقدية والفكرية الموجودة في الحقبة الزمنية التي عاش كل منهما فيها، ثم تلت تلك الدراسة خلوة إلىٰ النفس لاستبطان الفطرة الإنسانية التي وضعها الله داخلهما؛ وذاك للتحقق من الطريق الذي سوف يسلكاه في حياتهما وصولا إلىٰ الإيمان بالله الحق، وقد تمثلت وجوه التأثر الفكرية الرئيسة بين الكاتبين فيما يأتي:

- **الدافع:**

فقد كشفت البنية الزمنية السابقة أن السيرة الذاتية تتطلب دافعا ذاتيا ودافعا موضوعيا يكونان سببًا في ظهورها؛ إذ إن السيرة الذاتية تهدف إلىٰ كشف جوانب حياة الإنسان أمام الآخرين، وبخاصة إذا مرّ هذا الإنسان بتجربة روحية – كما هو الحال عند الغزالي ومصطفىٰ محمود– فتكون هذه التجربة آنئذ خير دافع لصاحبها كي يدونها مبينا ظل هذه التجربة علىٰ نفسه وسلوكه، ويرىٰ "يحيي إبراهيم عبدالدايم" أن هذا الدافع يجب أن يكون معلنا من أول الكتابة حتىٰ يحدد أمامه معالم طريقه فيقول: "ويحسن أن يكشف المترجم لنفسه قبل كل ذلك عن غايته، فهي التي تحدد أمامه معالم طريقه، وترشده إلىٰ ما يجب أن يسقط ويهمل، وما يجب أن يثبت ويختار"[(١)]، وذلك يمثل حرصا من صاحب السيرة علىٰ المتلقي وتأكيدا علىٰ وضوح الهدف لديه، وفي الوقت ذاته يكون أمانا للسيرة من الترهل

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص٥.

والاستطراد فيما لا يفيد، وفي كل ذلك لا يجب أن يكون التحديد مباشرا، بل تكفي الإشارة إليه بأسلوب أدبي فني.

ولا تتحدد التجربة بنوع خاص بل الحياة مليئة بالتجارب المتنوعة لكن تظل التجربة الروحية التي يعانيها الإنسان هي أقوىٰ أنواع التجارب؛ لأنها تتصل بعقيدته وسلامه الروحي: "ولست أقول إن التجارب في الحياة لا تكون إلا روحية، ولكن التجارب الروحية من أشدها حثا علىٰ كتابة السيرة الذاتية"[1]، وهذا يؤكد أهمية البحث عن الدافع الكامن في نفس الكاتب حتىٰ نستطيع الوقوف علىٰ مرامي سيرته وآثارها.

ويحدد الإمام "الغزالي" دافعه بوسيلة فنية حوارية يقول فيها: "أما بعد: فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلىٰ يفاع الاستبصار، وما استفدته، أولاً من علم الكلام، وما اجتويته ثانيًا من طرق أهل التعليم، القاصرين لدرك الحق علىٰ تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثًا من طرق التفلسف، وما ارتخيته آخراً من طريقة التصوف وما انجلىٰ لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة وما ردني إلىٰ معاودتي بنيسابور بعد طول المدة"[2]، فهذا البيان ينطوي علىٰ الدافعين

(١) فن السيرة، إحسان عباس، ص٩٥.

(٢) المنقذ من الضلال ص١٥٦ وما بعدها.

الذاتي والموضوعي معا، فبيّن الإمام أن دافعه هنا يتحدد في رسم السبيل الذي يوصل إلىٰ الطريق الحق، مع بيان الطرق المتعرجة التي تستلب الإنسان وتبعد به عن الطريق السوي، مع بيان الملل والآراء المختلطة التي تقلب فيها من علم الكلام وأهل التعليم، ثم الانغماس في أوحال التفلسف، إلىٰ أن وصل إلىٰ الطريق الذي ارتضاه بعد معانة، ألا وهو طريق التصوف الذي بعد به عن شوائب الشك والاختلاط إلىٰ أنوار المعرفة واليقين، وبهذا نجد أن الإمام: "استخدم في منهجه الفكري أسلوب الشك المنهجي الذي يبدأ شاكا وينتهي موقنا مؤمنا، فشك في الحواس كأداة للوصول إلىٰ الحقيقة، كما شك في العقل لأنه يخطئ في أبسط القواعد الرياضية، وأخيرا وصل الغزالي إلىٰ اليقين عن طريق تصفية النفس من الشوائب والعلائق والعوائق"(١)، وهذا هو المنهج العلمي المنهجي الذي يستصحب المقدمات ويستأنس بالأدوات ليصل إلىٰ النتائج.

وأما "مصطفىٰ محمود" فقد كان الدافع لديه في بداية الأمر هو البحث عن مجد الذات وعلو النفس إذ يقول: "إن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح، وإعجابي بموهبة الكلام ومقارنة الحجج التي تفردت بها، كان هو الحافز، وكان هو المشجع.. وكان هو الدافع.. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب، لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي،

(١) الغزالي وجون ديوي نظرتهما للطبيعة الإنسانية، د حماد يحيي صالح العسكري، إصدارات لجنة البحث والدراسة في التراث النفسي العدد ٢ أبريل ٢٠١٣م، ص٩٩.

وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبداية الصحوة من مهد الطفولة"[1]، فقد عمل فيه العلم التجريبي عمله وأهمل الجانب الروحي مما أدي إلىٰ الوقوع في التناقض الفكري؛ فهو يعترف بالخالق ثم يتساءل من خلق الخالق؟! فهذا السؤال يجعل من الخالق مخلوقا وهذا هو التناقض بعينه.

ثم احتاج الأمر منه إلىٰ الاستغراق في العلم والقراءة وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل ليقطع الطريق إلىٰ الله، وعند قراءة هاته الكلمات نستحضر صورة الإمام "الغزالي" وهو يقول: "كان التعطش إلىٰ إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وُضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتىٰ انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت عليّ العقائد الموروثة علىٰ قرب عهد الصبا"[2]، وهنا نجد "مصطفىٰ محمود" أشد ما يكون اقترابا في الدافع والمحفز من دافع الإمام الغزالي في كلماته هذه، ويمكننا الآن وضع المخطط الآتي لرسم التقارب والتأثر بينهما:

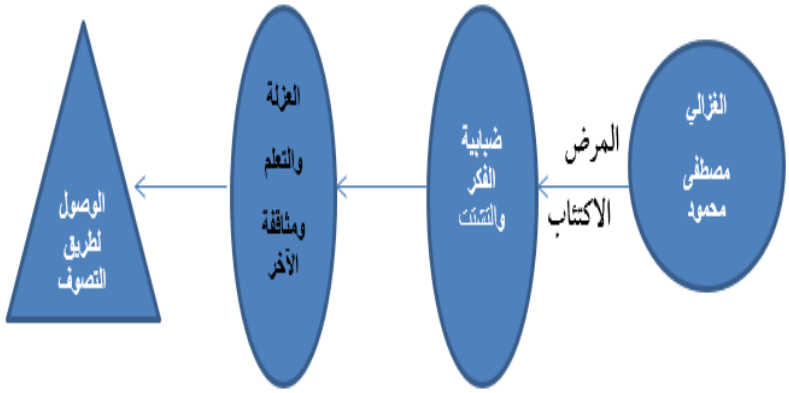

(٢) المنقذ من الضلال ص١٦١.

وقد تبلور الدافع عند الكاتبين في صورة مركزة نأت عن الترهل السردي الذي يبعد بنا عن مناط الحديث، فلم تشتت الأذهان بالإغراق في توافه الحياة، ولم تستنزف الأوقات بمتابعة مسرح الحياة المليء بالأحداث التي تضيع الجهود دون طائل، فقد أحسن الكاتبان حين ركزا سردهما علىٰ ما يعبر عن فكرتهما دون تزيد أو مماطلة في الحديث.

وبهذا نجد أن هاتين السيرتين قد جاءتا مدثرتين بدثار الهيبة والجلال؛ إذ خلصتا من كل ما يكدر هيبتهما أو يزيل جلالهما من مثل ما نقرأ عند أصحاب السير الذين يتفاخرون بسرد موبقاتهم وفسادهم.

- البوح واستبطان الذات:

إن السيرة الذاتية بوصفها نشاطا لغويا تحتوي علىٰ ما باح به الكاتب وفي الوقت ذاته تضمر المسكوت عنه، فلا تخلو النصوص الأدبية من خبايا يستشفها المتلقي المثالي من وراء الألفاظ، ويستطيع أن يقف من خلالها علىٰ ما تضمره نفس الكاتب، وآنئذ ينطلق إلىٰ التحليل والدرس ليجلي ما خفي واستتر، والسيرة الذاتية في هذا من أكثر النصوص الإبداعية التي تستدعي المسكوت عنه؛ فهي تقوم علىٰ التذكر والذات تتذكر وتنسىٰ سهوا وعمدا، لكن تبقىٰ مصداقية الكاتب فيما يقدمه إلىٰ القارئ من أحداث حياته دون إخفاء متعمد، وإن وجد ما يعيبه أو يريد إخفاءه فيمكنه استخدام أساليب اللغة في تقديم ذلك بطريقة غير مباشرة يتعرف عليها من يجيد هذه الأساليب، وذلك حتىٰ يضمن المصداقية لسيرته الذاتية.

وقد اتفق الكاتبان في البوح العقليّ والنفسيّ اللذين مثلا مرحلتي الصراع العقلي والنفسي لديهما، فالإمام الغزالي" يفتتح كتابه بقوله: "فقد سألتني أيها الأخ الكريم في الدين أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلىٰ يفاع الاستبصار، وما استفدته أولا من علم الكلام، وما اجتويته ثانيا من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق علىٰ تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثا من طرق التفلسف، وما ارتضيته آخرا من طريقة أهل التصوف"[1]، فالإمام هنا يوضح المعاناة التي اعتورته من جراء اعتلالات النفس والتقلب بين أهل المذاهب الباطنية والظاهرية، والفلسفية والكلامية، بحثا عن "العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقىٰ معه ريب ولا يقاربه إمكان الغلط والوهم"[2]، إلىٰ أن اهتدىٰ لمذهب أهل التصوف وارتضاه انتسابا واعتقادا، ومن هنا نتبين أن الإمام يعد ظاهرة فكرية نقاشية نتج عنها تمحيص المذاهب في عصره ومن ثَم تكاملت أدلته وأدوات بحثه حتىٰ وصل إلىٰ ما ارتضىٰ، وعن هذا يقول "العايدي": "إذا نظرنا إلىٰ الغزالي كظاهرة فكرية وجدناه عبارة عن "ملتقىٰ طرق" انتهت

(١) المنقذ من الضلال ص١٥٦ وما بعدها.

(٢) نفسه ص١٦٣.

إليه النظم المعرفية الثلاثة[١] فالتقت عنده التقاء بنيويا، أعني صداميًا، وكانت نتيجة هذا اللقاء علىٰ صعيد الغزالي كفكر أو كعقل هو الأزمة الروحية التي عانىٰ منها، أزمة الشك "اللاأدري" "وليس المنهجي" وكانت نتيجته علىٰ صعيد الغزالي كإنتاج فكري هو ذلك "التداخل التلفيقي"[٢]، علىٰ أني لا أوافق "العايدي" علىٰ وصفه نتاج الإمام بالتلفيقي؛ فهذه الكلمة قصد بها عدم التكامل بين منهجيات الإمام البيانية والعرفانية والبرهانية، وأنها بنيات متجاورة إن لم تكن متنافرة[٣]، لكن دراسات الإمام التي عقدها للوصول إلىٰ الحق ومناقشته لمذاهب عصره في رحلته البحثية تظهر التكامل الذي بنىٰ عليه الإمام فكره ومن ثَم عقيدته؛ فقد وظف هذه البنيات توظيفا مفصلا في كتبه التي سردها في سيرته، مما جعله يقف علىٰ حدود كل مذهب والرد عليه، إلىٰ أن وصل هذا التكامل ذروته في دراسته لمذهب الصوفيين عن طريق: بنية البيان وذلك بالدراسة والتأمل: "فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم"[٤]، وبنية العرفان

(١) يقصد بها: البيان وهو: الحقل المعرفي العربي "اللغوي والبلاغي والفقهي والكلامي"، والعرفان وهو: ما يلقىٰ في القلب علىٰ صورة كشف أو إلهام، والبرهان وهو: الحجة الفاصلة البينة، ينظر: بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، د. محمد جابر العايدي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة التاسعة ٢٠٠٩م، ص١٣، ص٢٥١، ص٣٨٣.

(٢) بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ص ٤٨٦.

(٣) ينظر بنية العقل العربي ص٤٨٦.

(٤) المنقذ من الضلال ص٢٤٠.

بالمكاشفة والسلوك: "فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات.."[1]، وبنية البرهان بالحجة والبينة فيقول بعدما فصل أولية الخلق عند الإنسان بدءا من اللمس والبصر والسمع وصولا إلىٰ العقل الذي يدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأمورا لا توجد في الأطوار التي قبله وعن هذا يقول: "ووراء العقل طور آخر تتفتح فيه عين أخرىٰ يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأمورا أخرىٰ العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز من إدراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها، وذلك عين الجهل إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه فيظن أنه غير موجود في نفسه.."[2] ، ويضرب لذلك مثلا بالنائم الذي يكشف له بعض الغيب إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير، وبهذا نرىٰ التكامل المنهجي الذي هداه إلىٰ الطريق المستقيم.

أما "مصطفىٰ محمود" فهو الآخر تقلب بين وجوه الشك والإنكار مما وضعه في معاناة عقلية نفسية، ويزيد علىٰ ذلك أنه بدأ حياته مغرورا مزهوا بنفسه يجادل من أجل الجدال والشهرة لا بحثا عن الحقيقة، ويصف ذلك بقوله: "إن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها.. كان هو الحافز دائما والمشجع دائما،

(١) نفسه ص٢٤٥.

(٢)المنقذ من الضلال ص٢٦٩ وما تليها.

وكان هو الدافع.. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب"[١]، بل زادت الرطانة علىٰ قلبه والغشاوة علىٰ بصره عندما نظر إلىٰ الغرب نظرة تأليه وعبادة فيقول: "حول أبطال الغرب وعبقرياته كنا ننسج أحلامنا ومثلنا العليا.. حول باستير وماركوني ورونتجن وأديسون.. وحول نابليون وإبراهام لنكولن.. وكرستوفر كولمبس وماجلان. كان الغرب هو التقدم وكان الشرق هو التخلف والضعف والتخاذل والانهيار تحت أقدام الاستعمار. وكان طبيعيا أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق.. وهو السبيل إلىٰ القوة والخلاص"[٢] ، لكنه بعد دراسة الطب والإبحار في علومه ووسائله تكشفت له الحقائق شيئا فشيئا.. إذ أدرك أن الكون كله مبني علىٰ هندسة واحدة وقوانين دقيقة، وبدأ العلم يمده بوسيلة تصور بها الله الذي كان في نظره آنئذ هو الطاقة الكامنة في الكون، ثم تعلم أن الوجود لا نهائي وأنه حدث قديم أبدي أزلي وأضحىٰ تصوره: "أصبح الله في هذه النظرة هو الكل ونحن تجلياته"[٣] ، ثم انغمس في فكرة التناسخ مدة طويلة، وظهرت آثار ذلك في رواياته "العنكبوت، والخروج من التيه"، ثم أفاق علىٰ حالة من عدم الرضا وعدم الاقتناع عكف علىٰ أثرها علىٰ علوم الفلك والكيمياء والعلوم النووية وعلم التشريح، وعن طريق العلم توصل

(١) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص٧ وما تليها.

(٢)رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص١٠.

(٣) نفسه ص١٢.

إلىٰ الحقيقة التي استقر عليها، ويصف هذا التكامل بقوله: "وهكذا قدم لي العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن الله"(١).

وعند النظر إلى حياة الكاتبين وما باحا به في سيرتهما يتبين أن:

سيرتهما انمازت بما انمازت به شخصيتهما العربية من حياء النفس وطهر الروح، وكشفت عن الهوية العربية التي تبغي التكتم الشديد علىٰ ما يشينها، وفي حالة اعترافها تكون هذه الاعترافات علىٰ سبيل التلميح دون التصريح، فهذا التصريح بالفعل الرذيل والمباهاة به ليس من سمات الشخصية العربية التي تحافظ علىٰ حرماتها وما يمس شرفها، وهذا اتجاه يجب علينا نحن المعاصرين العرب أن نحافظ عليه؛ إذ هو سمة تميزنا من كثير من الغربيين بل وتفضلنا عليهم، وما ينبغي لنا أن نعلي من شأنهم في كل شيء وأن ننساق وراء الدعوات التي تدعو إلىٰ تفضيلهم كمثل ما نجد عند "إدوارد سعيد" الذي يقول في مقدمة كتابه عن الاستشراق: "وأنا أعتقد شخصيا أن القيمة الكبرىٰ للاستشراق تكمن في كونه دليلا علىٰ السيطرة الأوروبية الأمريكية علىٰ الشرق"(٢)، وقوله في موضع آخر: "إننا نستطيع أن نقول إن العنصر الرئيس في الثقافة الأوروبية هو علىٰ وجه الدقة الذي جعل تلك الثقافة مهيمنة داخل أوربا وخارجها، أي فكرة الهوية الأوروبية باعتبارها تتفوق علىٰ جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية. هذا إلىٰ جانب هيمنة الأفكار الأوروبية عن الشرق، وهي التي تكرر القول

(١) نفسه ص١٦.

(٢) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، رؤية إدوارد سعيد ترجمة د. محمد عنان، دار بنجوين العالمية للنشر والتوزيع ١٩٩٥م، ص٥٠.

بتفوق الأوروبي علىٰ التخلف الشرقي"[١] ، ويقول في موضع آخر: "ويعتمد الاستشراق في وضع استراتيجيته، بأسلوب يتسم بالاتساق، علىٰ هذا التفوق المرن في الأوضاع، ومعناه وضع الغربي في سلسلة كاملة من العلاقات التي يمكن أن تنشأ مع الشرق بحيث تكون له اليد العليا في كل علاقة منها. ولماذا لا يكون الأمر كذلك خصوصا في الفترة التي بزغ فيها نجم أوروبا بزوغا فذا منذ أواخر عصر النهضة إلىٰ الوقت الحاضر؟"[٢]، فهذا كلام مطلق غير صحيح البتة؛ فليس للغرب تفوق علىٰ الشرق وهيمنة، إنما هي تلاقح ثقافات واستفادات متبادلة، وكم من مرات أخذ الغرب من الشرق، وكم كنا ذوي الفضل والتفوق، لذا لا يصح لنا أن نسير علىٰ منوالهم وبخاصة في مسألة البوح الجنسي الذي هو سمة عامة عند معظمهم في سيرهم الذاتية، فهذا يخص النموذج المعرفي الغربي؛ فالإنسان عندهم لا يكون بلا خطيئة، لكن عندنا نحن الشرقيين من يبح بهذا علنا يكن كمن يفعله علنا، ولا يفعل ذلك علنا إلا الحيوانات وصدق الله إذ يقول في وصف هؤلاء: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٩)، وعندنا نحن العرب لا يلزم أن يكون الإنسان ذا خطيئة بل الأصل أن يكون بلا خطيئة، وإن كان فإنه يتستر ويكاد يتنكر لها، وإذا أراد البوح بذلك حتىٰ

(١) الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ص٥١.

(٢)الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق ص ٥١.

يقارب الصدق في سيرته الذاتية فإنه يلجأ إلىٰ التلميح والكناية محاولا الاستغفار عنها والتوبة منها؛ ولذا لم تأت ألفاظ" مصطفىٰ محمود" رذيلة بذئية حينما أراد البوح بما كان عليه؛ وقد ساعدته اللغة العربية بما تمتلكه من وسائل الكناية والتلميح دون التصريح المؤذي سمعا وبصرا، فيقول: "ألم تكن مثلنا منذ سنوات تسكر كما نسكر وتلهو كما نلهو وتسعد بهذه السعادة الحيوانية التي نسعد بها وتكتب الكفر بعينه في كتابك "الله والإنسان" فتسبق به إلحاد الملاحدة، فماذا غيرك من النقيض إلىٰ النقيض؟!"[1] ، هكذا جاء البوح عند "مصطفىٰ محمود" علىٰ لسان صديقه الملحد الذي هو في الحقيقة صوته في مرحلة سابقة، لكنه لم يقله علىٰ لسانه هو كنوع من التبرؤ من هذا الفعل الذميم، وفي الوقت ذاته يرد عليه بما هو عليه الآن بقوله: "لم يكن ما كتبت كفرا.. بل تساؤلا.. وطريقا من الشك المخلص أفضىٰ في النهاية إلىٰ الإيمان بفضل الله وتوفيقه."[2]، وكأنه يقول: إنني أصبحت إنسانا جديدا فقد جبت التوبة ما قبلها، وهذا الإنسان الجديد في العقيدة والسلوك هو ما قرره سابقا في كتابه "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان" إذ يقول واصفا مرحلتي حياته: "غابت عني أصول المنطق وأنا أعالج المنطق ولم أدرك أني أتناقض مع نفسي إذ أعترف بالخالق ثم أقول ومن خلق الخالق فأجعل منه مخلوقا في الوقت الذي أسميه فيه خالقا وهي السفسطة بعينها... واحتاج الأمر إلىٰ ثلاثين سنة من

(١) حوار مع صديقي الملحد ص١٩٦.

(٢) نفسه ص١٩٦.

الغرق في الكتب وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر ثم تقليب الفكر علىٰ كل وجه لأقطع الطريق الشائكة من الله والإنسان إلىٰ لغز الحياة إلىٰ لغز الموت إلىٰ ما أكتب اليوم من كلمات علىٰ درب اليقين"[١]، فاعترف في نهاية الأمر بالخطأ الذي كان، وأنه اليوم إنسان ذو إيمان راشد وفكر جديد يسير بهما إلىٰ الله تعالىٰ.

وهذا ما تفرد به الإسلام من منهج يدعو إلىٰ الأمل والتفاؤل في الحياة لا القنوط الذي قد يؤدي بصاحبه إلىٰ الانتحار، ويحث الإسلام الإنسان أنه إذا ضعف أمام رغبات نفسه أو وساوس الشيطان فإنه يستطيع العودة إلىٰ طهر الحياة ونقائها بالاعتراف إلىٰ الله والتوبة النصوح، وبهذا النهج القويم انبنت شخصية المسلم عبر العصور المتلاحقة، وانبنىٰ معها النموذج المعرفي الإسلامي، وبهذا تشابه "مصطفىٰ محمود" مع الإمام "الغزالي" في طريقة البوح والمعاناة العقلية التي كانا عليها والتشتت النفسي الذي انتابهما، مما يؤكد اتصال النموذج المعرفي الحديث عندنا بالنموذج المعرفي القديم وأنه في حالات كثيرة يعد صدىٰ له، وهذا يدل علىٰ ثبات الشخصية العربية المسلمة لأنها ارتبطت بدين ثابت العقيدة والقواعد الكلية، مع أن هجمات المستشرقين حاولت أن تنال من شخصيته وتنحرف بها عن أصلها لكنها لم تجد إلىٰ ذلك سبيلا.

- **طريق الوصول:**

(١) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان، ص٨.

تقلب الإمام بين طرق المعرفة؛ بالعلم تارة وبالخلوة والتأمل تارة وبمخالطة الصوفية تارة أخرىٰ[1]، وانتهىٰ به الأمر إلىٰ الاقتناع بطريق الصوفية وارتضاء مذهبهم بعد دراسة واعية لكتبهم ويقول عن ذلك: "فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ، حتىٰ اطلعت علىٰ كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع"[2] ، ثم مخالطتهم ويقول عن ذلك: "فعلمت يقينًا أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك، وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالىٰ، وبالنبوة، وباليوم الآخر"[3]، ونخلص من هذا كله أن طريق الإمام في الوصول إلىٰ الحق تمثل في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الدراسة المستفيضة للمذاهب الموجودة في عصره؛ وذاك بمطالعة كتب علماء المذهب وأقوالهم، وعند عدم الاقتناع بالمذهب يقوم بالرد علىٰ أقوال علمائه.

المرحلة الثانية: نجده يفضل الدخول في الخلوة والعزلة ومجاهدة النفس ومناشدة الفطرة.

---

(١) تقدم في تفصيل البنية الزمنية عند الإمام ما فيه تفصيل تلك المراحل.

(٢) المنقذ من الضلال ص٢٤٠ وما بعدها.

(٣) المنقذ من الضلال ص٢٤٧ وما تليها.

المرحلة الثالثة: نجد سفينته قد رست علىٰ شاطئ الصوفية بعد التيقن من صحة مذهبهم، وهي مراحل متكاملة ناضجة تبين صدق طلبه للعلم وتمثله للمعرفة، كما أنها تبين قيمة عقلية عربية لها أثرها البالغ في المشاركة في بناء النموذج المعرفي العربي، وفي الوقت ذاته تمثل هذه المراحل أصالة الفكر الإسلامي وريادته العلمية التي استطاعت أن تصل لذروة الحضارة الإنسانية إبان عصرها الذهبي.

وعند تتبع "مصطفىٰ محمود" في مراحل حياته[١]، نجده قد مر بمراحل الإمام الثلاث ذاتها تماما بتمام، فهو الآخر قد درس العلوم التجريبية والكلامية، ثم خلا إلىٰ نفسه معتزلا العالم ومن فيه مستجيبا لنداء الفطرة داخله: "فقد أودع الله في قلوبنا تلك البوصلة التي لا تخطئ.. والتي اسمها الفطرة والبداهة"[٢] ، ثم انتصر للمذهب الذي رآه حقا، مما يدل علىٰ تأثره بطريقة الإمام في وصوله إلىٰ العلم اليقيني الذي كان هدفه ومقصده، وأن الاثنين قد فضلا طريق التصوف، فيعلنها الدكتور "مصطفىٰ محمود" في صراحة: "والذين عرفوا تلك اللذة.. لذة الصلة بالله والصلح مع النفس.. يعلمون أن كلام الصوفي علىٰ حق"[٣] ، كما أعلنها الإمام من قبل في صراحة: "وما ارتضيته آخرا من طريق التصوف"[٤].

لكن التصوف عند الإمام "الغزالي" أصل في اتجاهاته ومناشطه العلمية، فقد ألف مؤلفات عدت أصلا لشرح هذا المذهب وعلىٰ رأسها: "إحياء علوم الدين، وبداية الهداية، ومكاشفة القلوب المقرب إلىٰ حضرة

(١) تقدم في تفصيل البنية الزمنية عند الدكتور مصطفىٰ محمود تفصيل تلك المراحل.

(٢) رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان ص٧٨.

(٣) حوار مع صديقي الملحد ص١٩٦.

(٤) المنقذ من الضلال ص١٥٧.

علام الغيوب، ومنهاج العابدين إلىٰ جنة رب العالمين، ورسالة أيها الولد،....." وغيرها كثير مما يعتمد عليه أصحاب هذا المذهب، أما التصوف عند "مصطفىٰ محمود" فإنه تأثر وانتماء، لكن لم تكن له مؤلفات خاصة في التصوف وإن شاع في مؤلفاته الجانب الصوفي.

المبحث الثالث: أدب السيرة الذاتية.. الوظائف الفنية والفكرية

يشير البناء المعرفي عند الغزالي ومصطفي محمود – ابتداء من الانحدار في الفكر والوقوع في أسر المذاهب وأغوالها وتسلط الهوىٰ.. وصولا إلىٰ يفاع الاستبصار– إلىٰ تحدي النفس والمجاهدة من أجل الوصول إلىٰ الحقيقة الإيمانية الكبرىٰ، ودحض كل الافتراءات التي تعتور الإنسان وتنغص عليه إيمانه بالله، وتحرم القلب سكونه واطمئنانه، وهذه الحقيقة نحتاج إليها هذه الأيام لمجابهة تيار الإلحاد الذي بدأ يتسرب إلىٰ شبابنا، وينتشر بين ذوي النفوس الضعيفة التي لم تستطع الفكاك من أسر النفس والشيطان، ولأن كيد الشيطان ضعيف فحيله واحدة وتلبيساته متشابهة مما يسهل الرد عليها وإنقاذ صاحبها من براثن ضلاله.

وهذا النهج الوظائفي للسيرة الذاتية هو الذي أتاح للكاتبين أن يعترفا بما كانا عليه من حالة الشك أو حالة عدم الإيمان دون أية مواربة أو إخفاء للحقيقة التي كانا عليها؛ لأنه بعد ذلك سوف تتولىٰ نقطة التحول بيان ما أصبحا عليه بعد ذلك من الحالة الإيمانية التي اهتديا إليها، بل ينمحي ما أصابهما من ضرّ، ويصبح ما كانا عليه ماضيا كأن لم يكن، ويكون ذكره علىٰ سبيل التنبيه علىٰ خطأ هذا الفكر أو ضلال هذا المعتقد.

وظائف السيرة الذاتية:

كشفت الدراسة عن مجموعة من الوظائف الفنية والفكرية بينت أهمية هذا الفن الأدبي، ووضحت معالم الاستفادة من قراءة السيرة الذاتية، وكيف أنها لا تتحدد بجوانب المتعة والتسلية فقط، بل إنها تتجاوز ذلك إلىٰ آفاق رحبة من الارتقاء بالعقل والروح معا، ومن هذه الوظائف: وظيفة التطهير:

فيشير مثل هذا النوع من السير التي تحوّل أصحابها من حالة الشك والقلق إلىٰ حالة الاطمئنان والسلام إلىٰ وظائف متعددة يستشعرها المتلقي عند قراءته هذه السير والغوص في أعماق ذات صاحبها، ومنها أن صاحب هذا النوع من السير يريد أن يتخفف من الهموم الثقال والأوزار الطامنة علىٰ صدره، وأنه يرىٰ في الاعتراف بما يحمله نوعا من التطهير الذي تشرق به روحه مرة أخرىٰ علىٰ حياة جديدة يستقبل بها قابل أيامه في سلام روحي وإيمان راسخ.

ومن هذه الوظائف: وظيفة "استبطان النفس ومحاورتها"، وتظهر جلية عند "مصطفىٰ محمود" الذي حاور نفسه في صورة صديقه الملحد، وأسلوب التجريد هذا يتيح للكاتب أن يستخدم تقنية المحاورة التي تسلسل الأفكار وتتنامىٰ بالحدث وصولا إلىٰ الحل، وظهرت متضمنة في حالة الاعتراف التي لجأ إليها الإمام "الغزالي" إجابة علىٰ سؤال "عبدالغافر الفارسي".

كما تظهر هنا وظيفة "مغالبة النفس"؛ إذ فن السيرة الذاتية من الفنون الشواق علىٰ النفوس إذ ليس من الهين علىٰ النفس البشرية أن تبوح بدخائلها وخفاياها أو تتعرىٰ أمام القراء بما قد يكون سببا لشينها أو تأذيها، ولا يقدر علىٰ ذلك إلا من ملك التصالح مع نفسه، وقد وضحت تلك الوظيفة عند الكاتبين في الاعترافات التي مر الحديث عنها أثناء الدراسة.

ومنها: وظيفة "النقد للمذاهب الخاطئة وتوجيهها" وقد ظهرت بصورة متكافئة عند "الغزالي" الذي أبطل المذاهب الكلامية والفلسفية والباطنية وأدعياء الصوفية، وكذلك ظهرت هذه الوظيفة عند "مصطفىٰ

محمود" الذي أبطل المزاعم كلها التي أثارها الملحدون في عصره، كما أبطل ما زعمه هو في مرحلة سابقة من سني حياته، وهذا رابط قوي يجمع بينهما في هذا الجانب، ويدل بوضوح تام علىٰ تأثر "مصطفىٰ محمود" بالإمام "الغزالي".

ولكي يستطيع كل من الإمام الغزالي" والدكتور "مصطفىٰ محمود" الرد علىٰ تلك المزاعم التي واجهتهما كان لزاما عليهما أن يبحرا في بحور العلم ويستطلعا المعارف والآراء، فتأتي هنا الوظيفة "الثقافية" أو وظيفة "حب الاستطلاع" لتؤدي دورها في تسليح صاحبها بشتىٰ أنواع العلوم والآداب والفنون للرد علىٰ مزاعم أهل الباطل، كما رأينا من رحلة الإمام "الغزالي" والدكتور "مصطفىٰ محمود" في بحور العلم والمعرفة، وهذه الوظيفة تبين دورهما في بناء النموذج المعرفي الحضاري الإسلامي العربي، وإسهامهما في تثرية هذا النموذج ببيان الخطوات المنهجية لطلب العلم من الدراسة والتحصيل والتفكر والمثاقفة ومقابلة الآراء والوقوف علىٰ الصحيح وتنحية الخاطئ.

وقد كشفت السيرة الذاتية عند الكاتبين عن وظيفة "التواصل الفكري"؛ إذ حرص الكاتبان علىٰ اتباع المنهج العلمي المنطقي في دحض الآراء المخالفة لهما، ولا شك أن هذا النهج يتواصل فكريا مع أفكار عصره وما قبل عصره، ومن جهة أخرىٰ يتواصل فكريا مع عقول المتلقين في كل عصر، وقد أحسن الكاتبان حينما بنيا سيرتهما علىٰ أسلوب المحاورة الذي هو أصل في عملية التواصل مع الآخر فلا شيء أقدر علىٰ استنطاق الآخر وإقناعه من محاورته.

ويكشف فن السيرة الذاتية عن وظيفة أخرىٰ هي "وظيفة "المراقبة الاجتماعية" فليست السيرة الذاتية حِكما تعليمية ولكنها تكشف من خلال الاعتراف عن نقد قيمي"[1] ، فصاحب السيرة يمثل مرآة تتضح فيها محاسن مجتمعه ومساوئه في الوقت ذاته، وقد مثل الكاتبان وجهًا لحياتهما، وكشفا عن تيارات الفكر في زمانهما، وبخاصة في عصرنا الحديث عصر "مصطفىٰ محمود" وما يموج فيه من تيارات الإلحاد والانحراف.

وتعد السيرة الذاتية جاذبة للمتلقي بما تحققه من مصاحبة كاتبها ومشاركته أحلامه وهمومه مشاركة تحقق للمتلقي الوصول إلىٰ أعلىٰ درجات الانفعال بالحدث، ومن ثم تحقق "وظيفة الإمتاع والمؤانسة"؛ فالفن ليس كله علىٰ درجة واحدة من الإمتاع ولكن الإمتاع شرط فيه كله، وقد ظهرت هذه الوظيفة عند الكاتبين فلا يزال الإنسان متعلقا بسيرتهما ما وسعه الجهد واستفرغته الطاقة، ولا يفتأ يقرأ ويقرأ طالبا المزيد دون ملل أو ضيق، وهنا يشعر المتلقي أنه أصبح هو والمبدع شيئا واحدا "فيخرجه ذلك من التمركز الذاتي؛ إذ تحقق السيرة الذاتية كفن تواصلي ضربا من المشاركة الوجدانية الفعالة..، وتحيا نفوس الاخرين في أعماق ذواتنا لا بوصفها مجرد انعكاسات لأذواقنا الخاصة ورغباتنا الشخصية، بل بوصفها تجارب حية تشارك فينا من الداخل، فنستطيع أن ننفذ إلىٰ عوالم نفسية

(١) أدب السيرة الذاتية ص٧٢.

جديدة مغايرة لعالمنا الشخصي"[١] ، وهذا هو ما حقق الإمتاع والمؤانسة بسيرتي الكاتبين اللتين اندمجنا معهما، وهذا مما يوحي بالاتحاد العاطفي أو التناغم الوجداني.

وعلىٰ حين ظهرت الوظائف السابقة بصورة جلية بهية متحدة عند الكاتبين إلا أن وظيفة "القص" ظهرت بصورة متفاوتة، فسيرة الإمام "الغزالي" توافرت فيها هذه الوظيفة بصورة ما، إلا أنها ظهرت بصورة باهتة عند "مصطفىٰ محمود"؛ إذ لم تقترن بالأحداث الحكائية المشوقة، أو الشخصيات التي تصل بالأحداث إلىٰ ذروة الصراع؛ فقد اقتصر الصراع هنا علىٰ الصراع الداخلي لما كانت تنطوي عليه نفسه من ألوان الشقاء والشك.

وتكشف دراسة فن السيرة الذاتية عن وظيفة التأثر؛ فالتجارب الذاتية يتأثر أصحابها بسير الماضين، فظهر تأثر الدكتور "مصطفىٰ محمود" بالإمام "الغزالي" في تجربته العلمية البحثية الروحية، كما تبين من دراسة السيرة الذاتية عند الإمام "الغزالي" أنه تأثر بأستاذه الإمام "المحاسبي"، وأنه سار في افتتاح سيرته علىٰ نسق قريب من نسق سيرة أستاذه: "النصائح الدينية والنفحات القدسية"[٢] "المسمىٰ بالوصايا"؛ إذ افتتح الاثنان

(١) أدب السيرة الذاتية، ص٧٥.

(٢) النصائح الدينية والنفحات القدسية ، أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦/ ١٩٨٦م، ص٥٩.

كتابيهما بالكلام عن حديث رسول الله –صلىٰ الله عليه وسلم– إن هذه الأمة تفترق علىٰ ثلاث وسبعين فرقة..."، ثم الحديث عن أصناف الناس وأن كل صنف يدعي أنه هو الناجي، كما اشتركا في اللغة التقريرية التي انتهجها "المحاسبي" في تصديره لأبوابه بقوله: "إخواني" ومخاطبته للمتلقين بأقواله المتكررة: "بحق أقول لكم، ويحكم، يا عبيد الدنيا، ومتىٰ زعمت.."[1] ، إلىٰ أن يصل التأثر إلىٰ غاية مداه عند الإمام "الغزالي" في بناء كتابه: "إحياء علوم الدين" علىٰ نسق موضوعات كتاب "المحاسبي" "النصائح الدينية والنفحات القدسية".

❁❁❁❁❁

(١)النصائح الدينية والنفحات القدسية ص٦٥ وما بعدها.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد النبي الكريم، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.. وبعد،

فإن السيرة الذاتية العربية ليست فنا حديثا من حيث النشوء، بل هي فن قديم عرف طريقه إلىٰ المقاصدية منذ نشوئه المبكر، وليست فنا مستعارا من الخارج؛ فكل أمة قادرة علىٰ تسجيل سيرتها بطريقتها الخاصة المرتبطة بنموذجها المعرفي، لكنها لم تصل إلىٰ نضج التشكيل الفني إلا بعد تأثرها بقواعد هذا الفن التي رصدت حديثا.

وتبين من الدراسة أن الأدب أكثر فلسفة من التاريخ؛ إذ الفنون الأدبية تعنىٰ بالفكرة كما تعنىٰ بالصياغة، ولا تحصر نفسها في مجرد سرد الأحداث، بل يصاحب هذا السرد أدبيات من شأنها أن ترتقي بالعمل فلسفيا وفنيا، وهذا ما اتسم به كتاب "المنقذ من الضلال" وكتابا "حوار مع صديقي الملحد، ورحلتي من الشك إلىٰ الإيمان"، فهي ليست مجرد كتب تحكي سيرة بقدر ما هي اندماج بين فن الأدب والمعرفة والبحث عن الذات.

كما اتضح أن فن السيرة الذاتية يعد كشفا للواقع والتاريخ والفكر واللغة في زمان ما ومكان ما، وأن هذا الفن ليس كله علىٰ نسق واحد؛ فمنه ما يبنىٰ علىٰ قالب روائي، ومنه ما يبنىٰ علىٰ نسق اليوميات، ومنه ما يبنىٰ علىٰ نسق وظيفي يهتم بالغاية التي من أجلها سرد صاحب السيرة تجربته، ويتأتىٰ كل هذا بتنوع تقنيات الحكي وحسن استثمار البدائل الزمنية المتعددة، وتبادل الأدوار بين الراوي والبطل، وغير ذلك من أنماط السرد المتنوعة.

وبالدراسة تبين أن فن السيرة الذاتية شأنه شأن كل النصوص الأدبية التي تتآلف فيها البنىٰ: (العنوان، واللغة، والخيال، والفضاء الزماني والمكاني، والرؤىٰ والأفكار، والغايات، ...) لتقدم نصا تُكتب له الصيرورة الأدبية.

وقد أصبح فن السيرة الذاتية عند العرب الأوائل ومعظم المعاصرين وطنا لمواطن العبرة والإفادة دون الوقوع في الحرج الجنسي أو الأخلاقي، وهذا يعكس طبيعة الشخصية العربية الإسلامية الشرقية التي تقدس الطهر والنقاء، وتنفر من حياة العربدة والعهر، وفي الوقت ذاته جاءت السيرة الذاتية العربية من باب التحدث بنعمة الله وليست تفاخرا بالموبقات والخطايا كما نرىٰ عند غيرها من الأمم.

ويعد نشر هذا النوع من السير الذاتية وإعادة قراءتها بما يتلاءم مع مقتضيات العصر نوعا من الحماية العقدية والفكرية لأبناء الأمة الإسلامية والعربية؛ إذ تبين للقارئ خطأ المزاعم التي يروجها المرجفون وأذناب العقائد الفاسدة والمذاهب الاستعمارية الهدامة.

كما يعد المنجز الإسلامي العربي منجزا ذا روح إيجابية تبث القيم والأخلاق؛ فهو مستمد من الفكرة الإسلامية التي تبث الروح الإيجابية عن طريق القدوة وتجويد الحياة، وتبين أن الإمام الغزالي أسهم بنصيب وافر ودور أساس في بناء هذا النموذج الإسلامي العربي.

ومثّل كتاب الإمام الغزالي "المنقذ من الضلال" الأزمة النفسية التي عاشها الإمام، وآية ذلك أن الكتاب اقتصر علىٰ الحوار الداخلي دون الحوار الخارجي مما يدل علىٰ تقوقع الإمام حول نفسه وانعزاله عن العالم الخارجي البشري، مستثمرا الانفتاح علىٰ شتىٰ أنواع المعرفة للوصول إلىٰ طريق الهدىٰ والحق، وقريب من هذا فعل "مصطفىٰ محمود" حين حاور

صديقه الملحد، وفي الواقع هو حوار داخلي أيضا مع بعض التجوز؛ فصديقه الملحد هو نفسه في وقت سابق.

كما وصل الإمام الغزالي إلىٰ أعلىٰ مراتب التصوف والقرب التي يتخيل منها من لا تثبّت لديه الحلولَ والاتحاد، يقول -رضي الله عنه-: "وعلىٰ الجملة ينتهي الأمر إلىٰ قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ"(١)، وبهذا وضع الإمام الحد بين حالة القرب والإيمان وحالة الزيغ والبهتان، مشيرا إلىٰ أن التصوف الحقيقي برئ من أمثال هؤلاء.

وتبين من دراسة سيرة الإمام "الغزالي" قديما والدكتور "مصطفىٰ محمود" حديثا –وهما نموذجان للعلماء المعتمدين قديما وحديثا– أن النموذج المعرفي العربي الإسلامي قام علىٰ علم ودراسة وجهاد عقلي روحي، وتواصل فكري مع أفكار العصر، بل تجاوز أفكار المكان والزمان إلىٰ الأفكار الوافدة من النماذج المعرفية المغايرة زمانا ومكانا، كما استطاع النموذج العربي أن يصمد لهذه الأفكار والتغلب عليها بالأدلة والمنطق.

وقد سبقت سيرة الإمام "الغزالي" النسق الفني التنظيري للسيرة الذاتية، فالإمام كان في القرن الخامس الهجري أي قبل تدوين قواعد فن الرواية الحديث، ومع ذلك جاءت سيرته متماشية مع قواعد هذا الفن من وجوه، أما "مصطفىٰ محمود" فهو كاتب معاصر وله روايات أدبية علىٰ نسق قواعد الفن الروائي إلا أنه في أجزاء من سيرته لم يجعلها مترابطة ممتدة الحدث وصولا إلىٰ ذروته وانتهائه لأنه أدار سيرته علىٰ نسق المحاجاة؛ فهو يناقش عدة شبهات أثارها الملحدون أو من يعادون الإسلام أو أثارها هو من قبل، ومن ثم تولىٰ الرد عليها وإثبات ما توصل إليه من

(١) المنقذ من الضلال ص٢٦١.

الحق، وفي الوقت ذاته هو نوع من التأثر بما فعله الإمام "الغزالي" من قبل، ويتضح من ذلك أن سيرتهما جاءتا في قالبين قريبين من فن السيرة الذاتية وليس علىٰ النسق القاعدي الذي حددته الرؤىٰ الفنية الحديثة لهذا الفن؛ وما ذاك إلا لحرصهما البين علىٰ إظهار الوظيفة من حكيهما، وعدم صرف المتلقي إلىٰ أي شيء خلاف ذلك.

واتخذ الكاتبان اللغة الأدبية زيا لسيرتهما، مع أن الموضوع الذي عنيا به موضوع جدلي فلسفي إلا أنهما ببراعة حسهما الأدبي استطاعا أن يخففا من الحمولة الفكرية للموضوع، وأن يجعلانا نواصل القراءة دون إرهاق عقلي أو ملل نفسي، بل ونتشارك معهما في الانفعال العاطفي والتجربة النفسية والمتعة الأدبية، وذلك عبر سلاسة السرد الحكائي، وحسن العرض للأحداث، والألفاظ الموجزة المكتنزة، والعبارات المتزاوجة، والأسلوب القائم علىٰ الازدواج والسجعة الرشيقة غير المتكلفة.

وانمازت سيرة الدكتور "مصطفىٰ محمود" في كتابه: "حوار مع صديقي الملحد" من وجود "الحوار الفني" الذي أثار فينا روح الحجاج والمثاقفة، مما حفّزنا علىٰ المواصلة والتتبع للوقوف علىٰ الكفة الراجحة، وأما سيرة الإمام "الغزالي" فقد ضمن سيرته نقاشا وحجاجا لكنه نقاش أحادي الصوت لم يظهر فيه إلا صوت الإمام فقط.

وقد استطاع الإمام "الغزالي" أن يجعل من البنية الزمانية والفضاء المكاني قوتين فاعلتين متحركتين تسيران بالبناء الفني نحو التقدم دون استطراد أو توقف؛ إذ اقتصر حكيه علىٰ سرد الجانب الكفاحي الإصلاحي في حياته، وهذا ظاهر بوضوح من خلال سرده لرحلته التي بدأت عام ثمان وثمانين وأربعمائة من بغداد ثم إلىٰ الشام ومنها إلىٰ الحجاز، ثم العودة إلىٰ العراق مرة أخرىٰ، ثم الانتقال إلىٰ نيسابور سنة تسع وتسعين وأربعمائة،

كل ذلك في سياق متصل جاذب، أما عند "مصطفىٰ محمود" فقد نص علىٰ البنية الزمانية والفضاء المكاني في بداية الحكي في كتابه: "رحلتي من الشك إلىٰ الإيمان"، ثم أخذ يسرد نقاشاته للآراء المختلفة لبيان قدرة الله تعالىٰ في تسيير الكون والإنسان، ونستطيع لمح الزمان معه من خلال استعادة الحكي للمواقف، والحوار الذي أجراه في كتابه: "حوار مع صديقي الملحد".

وجاءت سيرة الكاتبين نوعا من الرغبة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة، فقد وصلا إلىٰ مذهب خاص بهما ارتاحت له نفساهما بعد دراسة وبحث واستقصاء أمنا معه من الانحراف أو الزيغ، كما جاءت سيرتهما وثيقة فكرية تدل علىٰ ما اكتنز عقلهما من أنواع العلوم والمعارف، وفي الوقت ذاته تثبت ما بذلا من جهد في سبيل الوصول إلىٰ ما اطمأنا له.

وبعد، فأدعو الله – تعالىٰ– أن يتم نعمته علىٰ هذا العمل بالقبول، وأن يكافئ كل يد كريمة امتدت إليه بالتوجيه والتصويب، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وجميع المسلمين.

❁❁❁❁❁

ثبت بالمصادر والمراجع

- الإيحاءات السردية والمعرفية في السيرة الذاتية كتاب المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي أنموذجا، محمد سالمي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها جامعة محمد خيضر-بسكرة الجزائر، المجلد الثاني عشر العدد الأول مارس ٢٠١٠م.
- أدب السير الذاتية، عبدالعزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان- مكتبة لبنان ١٩٩١م.
- بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، د. محمد جابر العايدي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة التاسعة ٢٠٠٩م.
- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٩٩١م.
- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيي إبراهيم عبدالدايم، دار إحياء التراث بيروت ١٩٧٥م.
- حوار مع صديقي الملحد، مصطفىٰ محمود، هدية مجلة الأزهر شهر جمادىٰ ١٤٣٦ه مارس ٢٠١٥م.
- رحلتي من الشك إلىٰ اليقين، مصطفىٰ محمود، دار المعارف١٩٧٦م .
- الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، رؤية إدوارد سعيد ترجمة د. محمد عنان، دار بنجوين العالمية للنشر والتوزيع ١٩٩٥م.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي فدوىٰ طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، تهاني عبدالفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٢م.
- السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٤م.

– العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، د. محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتب ١٩٩٨م.
– الغزالي وجون ديوي نظرتهما للطبيعة الإنسانية، د حماد يحيي صالح العسكري، إصدارات لجنة البحث والدراسة في التراث النفسي العدد ٢ أبريل ٢٠١٣م.
– فن السيرة، إحسان عباس، دار الشروق عمان، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٦م.
– فن السيرة الأدبية، ليون إدل ترجمة صدقي خطاب، دار العودة بيروت الطبعة الأولىٰ١٩٨٨م.
– الكشكول، بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، ت: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ بيروت ١٤١٨ هـ –١٩٩٨م.
– ماذا علمتني الحياة سيرة ذاتية، جلال أمين، دار الشروق، الطبعة السادسة ٢٠٠٩م.
– مصطفىٰ محمود شاهد علىٰ عصره، جلال عشري، دار المعارف، الطبعة الخامسة بدون.
– مقال (السيميوطيقا والعنونة) د. جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر المجلد الخامس والعشرون العدد الثالث يناير/ مارس١٩٩٧م.
– المنقذ من الضلال والموصل إلىٰ ذي العزة والجلال، أبو حامد الغزالي، تحقيق د. محمد أبوليلة، ود. نورشيف عبدالرحيم رفعت، نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة. واشنطن.
– مورفولوجيا القصة، فلاديمير بروب، ترجمة د. حسن عبدالكريم وسميرة بن عمو ، طبعة دار شراع للدراسات والنشر والتوزيع بسوريا، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦ه١٩٩٦م.
– النصائح الدينية والنفحات القدسية ، أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦/ ١٩٨٦م.

- نظرية السرد من وجهة النظر إلىٰ التبئير، جيرار جينيت وآخرون، ترجمة ناجي مصطفىٰ، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي الطبعة الأولىٰ ١٩٨٩م.
- نظرية المعرفة عند الغزالي ومقارنتها بالفلسفات التربوية، د أحمد ضياء الدين حسين، ود رائده خالد حمد نصيرات، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدارسات، العدد السادس والثلاثون، تشرين الأول ٢٠١٦م.
- النقد الأدبي الحديث مصادره الأولىٰ، تطوره، فلسفاته، مذاهبه، محمد غنيمي هلال، دار ومطابع الشعب الطبعة الثالثة ١٩٦٤م.